سلسلة زاد الواعظ (١)

مِنْ جَمِيلِ كَلامِ الإِمَامَيْنِ ابْنِ كَثِيرٍ وَابْنِ سَعْدِي فِي تَفْسِيرِهِمَا

جَمَعَهُ وَأَعَدَّهُ بِحَمْدِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ

أَبُو عَبْدِ العَزِيزِ مُنِيرُ الجَزَائِرِيُّ

دَارُ الفُرْقَانِ
لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

مِنْ جَمِيلِ كَلامِ الإِمَامَيْنِ
ابْنِ كَثِيرٍ وَابْنِ سَعْدِي
فِي تَفْسِيرِيهِمَا

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

حقوق الطبع محفوظة

دار الفرقان للنشر والتوزيع

20 شارع أحمد حسينة - باب الوادي - الجزائر (العاصمة)

00213 (0) 556 96 58 10

dar.alfurquan@gmail.com

سلسلة زاد الواعظ (١)

مِنْ جَمِيلِ كَلامِ الإِمَامَيْنِ
ابْنِ كَثِيرٍ وَابْنِ سِعْدِي
فِي تَفْسِيرِهِمَا

جَمَعَهُ وَأَعَدَّهُ بِحَمْدِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ
أَبُو عَبْدِ الْعَزِيزِ مُنِيرُ الْجَزَائِرِيُّ

دَارُ الْفُرْقَانِ
لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«...سُبْحَان مَنْ جَعَلَ كَلَامَهُ لِأَدْوَاءِ الصُّدُورِ شَافِيًا، وَإِلَى الإِيمَانِ وَحَقَائِقِه مُنَادِيًّا، وَإِلَى الحَيَاةِ الأَبَدِيَّة وَالنَّعِيمِ المُقِيمِ دَاعِيًّا، وَإِلَى طَرِيقِ الرَّشَادِ هَادِيًّا، لَقَدْ أَسْمَعَ مُنَادِيَ الإِيمَانِ لَوْ صَادَفَ آذَانًا وَاعِية، وَشَفَتْ مَوَاعِظُ القُرْآن لَوْ وَافَقَتْ قُلُوبًا خَالِيَة، وَلَكِنْ عَصَفَتْ عَلَى القُلُوبِ أَهْوِيَةُ الشُّبُهَات وَالشَّهَوَات، فَأَطْفَأَتْ مَصَابِيحَها، وَتَمَكَّنَتْ مِنْهَا أَيْـدِي الغَفْلَة وَالجَهَالَة فَأَغْلَقَتْ أَبْـوَابُ رُشْدِهَا وَأَضَاعَتْ مَفَاتِيحَهَا، وَرَانَ عَلَيْهَا كَسْبُهَا فَلَمْ يَنْفَعْ فِيهَا الكَلَام، وَسَكَرَتْ بِشَهَوَاتِ الغَيْ وَشَهَادَةِ البَاطِل، فَلَمْ تَصْغِ بَعْدَهُ إِلَى المَلَام، وَوَعَظَتْ بِمَوَاعِظٍ أَنْكَى فِيهَا الأَسِنَّة وَالسِّهَام، وَلَكِن مَاتَتْ فِي بَحْرِ الجَهْلِ وَالغَفْلَة، وَأَسْرِ الهَوَى وَالشَّهْوَة وَمَا لِجُرْحِ بِمَيِّتٍ إِيلَام» [«الوابل الصيب» (ص ٧٢)].

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ لله الذي أنزل على عبده الكتاب تبصرة لأولي الألباب، وأودعه من فنون العلوم والحِكَمِ العَجَبَ العُجَاب، وجعله أجل الكتب قدرا، وأغزرها علما، وأعذبها نظما، وأبلغها في الخطاب، قرآنا عربيا غير ذي عوج ولا مخلوق، لا شبهة فيه ولا ارتياب.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رب الأرباب، الذي عنت لقيوميته الوجوه، وخضعت لعظمته الرقاب.

وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله المبعوث من أكرم الشعوب وأشرف الشعاب، إلى خير أمة بأفضل كتاب، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه الأنجاب، صلاة وسلاما دائمين إلى يوم المآب.

وبعد: فإن العلم بحر زخار لا يدرك له من قرار، وطود شامخ لا يسلك إلى قنته ولا يصار، من أراد السبيل إلى استقصائه لم يبلغ إلى ذلك وصولا، ومن رام الوصول إلى إحصائه لم يجد إلى ذلك سبيلا، كيف وقد قال تعالى مخاطبا لخلقه: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ وإن كتابنا القرآن لهو مفجر العلوم ومنبعها، ودائرة شمسها ومطلعها، أودع فيه سبحانه وتعالى علم كل شيء، وأبان فيه كل هدي و غيّ، فترى كل ذي فن منه يستمد، وعليه يعتمد، فالفقيه يستنبط منه الأحكام،

ويستخرج حكم الحلال والحرام، والنحوي يبني منه قواعد إعرابه، ويرجع إليه في معرفة خطأ القول من صوابه، والبياني يهتدي به إلى حسن النظام، ويعتبر مسالك البلاغة في صوغ الكلام، وفيه من القصص والأخبار ما يذكر أولي الأبصار، ومن المواعظ والأمثال ما يزدجر به أولو الفكر والاعتبار، إلى غير ذلك من علوم لا يقدر قدرها إلا من علم حصرها، هذا مع فصاحة لفظ وبلاغة أسلوب، تبهر العقول وتسلب القلوب، وإعجاز نظم لا يقدر عليه إلا علاَّم الغيوب[١].

قال رسول الله ﷺ: «قَيِّدُوا العِلْمَ بِالكِتَاب»[٢].

قال العلامة بكر أبوزيد رحمه الله:

«**حفظ العلم كتابة**: ابذل الجهد في حفظ العلم «حفظ كتاب» فلأنّ تقييد العلم كتابة أمان من الضياع، وقصر لمسافة البحث عند الاحتياج، لاسيما في مسائل العلم التي تكون في غير مظانها، ومن أجل فوائده أنه عند كبر السن وضعف القوى يكون لديك مادة تستجر منها مادة تكتب فيها بلا عناء في البحث والتقصّي، ولذا فاجعل لك -كناشا- أو -مذكِّرة- لتقييد الفوائد والفرائد والأبحاث المنثورة في غير مظانها، وإن استعملت غلاف الكتاب لتقييد ما فيه فحسن، ثم تنقل ما يجتمع لك بعد في مذكرة مرتبا له على الموضوعات، مقيدا رأس المسألة واسم الكتاب ورقم الصفحة والمجلد، ثم اكتب ما قيدته -نُقل- حتى لا يختلط بما لم يُنقل،

---

[١] من مقدمة «الإتقان في علوم القرآن» (١/ ٩).

[٢] رواه الحاكم في «مستدركه» (٣٦١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧٠٠)، وصححه الألباني بمجموع الطرق، انظر: «السلسلة الصحيحة» برقم: (٢٠٢٦).

كما تكتب (بلغ صفحة كذا) فيما وصلت إليه من قراءة الكتاب حتى لا يفوتك ما لم تبلغه قراءة.

وللعلماء مؤلفات عدة في هذا منها: «بدائع الفوائد» لابن القيم، و«خبايا الزوايا» للزركشي، ومنها: «كتاب الإغفال»، و«بقايا الخبايا»، وغيرها.

وعليه فَقَيْدُ العلم الكتاب، لا سيما بدائع الفوائد في غير مظانها، وخبايا الزوايا في غير مساقها، ودررا منثورة تراها وتسمعها تخشى فواتها، وهكذا، فإن الحفظ يضعف، والنسيان يعرض، قال الشعبي: **(إذا سمعت شيئا فاكتبه ولو في الحائط)** [رواه خيثمة]، وإذا اجتمع لديك ما شاء الله أن يجتمع فرتبه في -تذكرة- أو -كناش- على الموضوعات، فإنه يسعفك في أضيق الأوقات، التي يعجز عن الإدراك فيها كبار الأثبات»[١].

هذا وإن من أهم كتب التفسير التي ينبغي أن يهتم بها طالب العلم:

- **«تَفْسِيرُ القُرْآنِ العَظِيمِ»** للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.
- **«تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ المَنَّانِ»** للإمام عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ.

سُئل العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ:

ماهي الكتب التي تنصح بها؟

فأجاب بقوله:«من أحسن ما يطالع الطلاب من الكتب، كتب التفسير الموثوقة

---

[١] «حلية طالب العلم» (ص ٣٧).

كتفسير ابن كثير والشيخ عبد الرحمن السعدي..» [١].

ولما سئل العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ عن تفسير ابن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ قال:

«هو تفسير جيد، وله أقوال جيدة، مع أن مراجعتي له قليلة، لكن في حدود اطلاعي عليه تبين لي أنه متحرر الرأي والنظر بضوابط الشرع، وليس له جمود أو تعصب.

وقد التقيته في دمشق قبل أكثر من أربعين سنة، وآنست منه علما جما، ورأيت فيه تواضع العلماء، وهو في هذا كسائر علماء نجد، يذكروننا بأخلاق العلماء المتقدمين وتواضعهم..» [٢].

وقال العلامة عبد المحسن العباد البدر حفظه الله:

«كتاب تفسير ابن كثير من أنفع التفاسير، وأوصي طلاب العلم أن يهتموا به كثيرا.

كتاب تفسير السعدي نفيس، يصلح لطالب العلم المبتدئ والعالم، وعباراته سلسة، ويصلح أن يقرأ على العوام في المساجد» [٣].

وقال العلامة صالح الفوزان حفظه الله:

«والذي أنصحُ به إخواني هو «تفسير ابن كثير»؛ فإنه من أعظم التّفاسير-وأحسنها

[١] «كتاب العلم ص ١٢٣»، وبنحوه أجاب الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٢٤/ ٣٢٩).

[٢] «حياة الشيخ ابن سعدي» بواسطة «تيسير الكريم الرحمن» (ص١٣).

[٣] «إتحاف العباد بفوائد دروس الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد» (ص٦٢).

طريقة ومنهجًا، لأنه يفسّر القرآن بالقرآن أولاً، ثم بالسنة النبوية، ثم بأقوال السلف، ثم بمقتضى اللغة العربية التي نزل بها؛ فهو تفسير متقن وموثوق.

وأيضًا هناك «تفسير البغوي» وهو تفسير مختصر جيد على منهج السلف، وتفسير الحافظ ابن جرير الطبري؛ فهو تفسير واسع وشامل؛ فهذه التفاسير موثوق بها، وكذلك تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي؛ فهو تفسير جيد وسهل العبارة غزير العلم» [١].

فهذه بعض النقول من كلام أهل العلم في نصحهم بهذين التفسيرين؛ ومن تأمل فيهما يجدهما كالآتي:

أما «**تفسير القرآن العظيم** (للإمام ابن كثير) فهو من أفيد كتب التفسير بالرواية، يفسر القرآن القرآن، ثم بالأحاديث المشهورة في دواوين المحدثين أسانيدها، ويتكلم على أسانيدها جرحا وتعديلا، فيبين ما فيها من غرابة أو نكارة أو شذوذا غالبا، ثم يذكر آثار الصحابة والتابعين، قال السيوطي فيه: «لم يؤلف على نمطه مثله»»[٢].

وأما **تفسير الإمام السعدي** فيقول عنه العلامة عبد الله بن عقيل رَحِمَهُ اللَّهُ:

«تفسير سهل العبارة، واضح الإشارة، وصاغه على نمط بديع بعبارات قريبة لا خفاء فيها ولا غموض، فهو يعتني بإيضاح المعنى المقصود من الآية بكلام

---

[١] «المنتقى من فتاوى الشيخ صالح الفوزان» (٢/ ٤٤).

[٢] من كلام الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة رَحِمَهُ اللَّهُ في مقدمته على كتاب «الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث» (ص ١٨).

مختصر مفيد مستوعب لجميع ما تضمنته الآية من معنى أو حكم سواء من منطوقها أو مفهومها، دون إطالة أو استطراد أو ذكر قصص أو إسرائيليات، أو حكاية أقوال تخرج عن المقصود، أو ذكر أنواع الإعراب إلا في النادر الذي يتوقف عليه المعنى،بل يركز على المعنى المقصود من الآية بعبارة واضحة يفهمها كل من يقرؤها مهما كان مستواه العلمي فهو في الحقيقة سهل ممتنع يفهم معناه من مجرد تلاوة لفظه،وقد اهتم بترسيخ العقيدة السلفية، والتوجه إلى الله، واستنباط الأحكام الشرعية، والقواعد الأصولية، والفوائد الفقهية إلى غير ذلك من الفوائد الأخرى التي لا توجد في غير تفسيره مع اهتمامه بتفسير آيات الصفات بمقتضى عقيدة السلف خلافا لما يؤولها بعض المفسرين»[١].

ولهذا قال العلامة المفسر ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «... ومن أجل هذا أشير على كل من يريد اقتناء كتب التفسير أن لا تخلو مكتبته من هذا التفسير القيم»[٢].

وأثناء قراءتي لهذين التفسيرين كانت عبارات جميلة تستوقفني، وكلمات رائعة تعجبني، فكنت أقيّدها في أوراق مستقلة، ثم بدا لي أن أجمعها في بحث مستقل مع إضافة بعض النقول...من كتب العلماء الفحول بما يناسب ذلك النقل في الغالب عسى الله أن ينفع بها، ففيها إعانة للواعظ في موعظته، وللخطيب في خطبته، والمحاضر في محاضرته، بل والمؤلف في مؤلفاته..

كما لا يفوتني أن أتقدَّم بالشكر الجزيل للمشايخ الفضلاء الذين اطلعوا على

---

[١] من تقديمه على«تيسير الكريم الرحمن» (ص٩).

[٢] «نفس المرجع» (ص ١١).

الكتاب وأوصوا بإخراجه للمنتفعين.

مع اعترافي بقصور باعي، وضعف علمي وقلة اطلاعي، أسأل الله أن يعفو عني، وإن كان من جهد يذكر فإنه لم يكن لي في هذه الوريقات إلا التهذيب والترتيب والتبويب..سائلا الله تعالى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مُحِبُّكُم فِي الله

أبو عبد العزيز منير الجزائري

abou-abdelaziz@hotmail.fr

واتساب: 00213555903095

مِنْ جَمِيلِ كَلَامِ الإِمَامِ ابْنِ كَثِير رَحِمَهُ اللَّهُ

فِي تَفْسِيرِه

ترجمة مختصرة للإمام ابن كثير رحمه الله

نسبه وميلاده:

هو الإمام الحافظ، المحدث، المُؤَرّخ، عماد الدين، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير بن ضوء بن درع القرشي الدمشقي الشافعي.

ولد بقرية «مِجْدَل» وهي قرية أُمِّه، سنة سبعمائة للهجرة أو بعدها بقليل.

نشأته:

نشأ الحافظ ابن كثير في بيت علم ودين، فأبوه عمر بن حفص بن كثير أخذ عن النواوي والفزاري وكان خطيب قريته، وتوفي أبوه وعمره ثلاث سنوات أو نحوها، وانتقلت الأُسْرةُ بعد موت والد ابن كثير إلى دمشق في سنة (٧٠٧ هـ)، وَخَلَفَ والده أخوه عبد الوهاب، فَقَدْ بَذَلَ جُهدًا كبيرًا في رعاية هذه الأسرة بعد فَقْدِها لوالدها، وعنه يقول الحافظ ابن كثير: «وقد كان لنا شقيقا، وبنا رفيقًا شفوقًا، وقد تأخرت وفاته إلى سنة (٧٥٠ هـ) فاشتغلت على يديه في العلم فيسَّر الله منه ما تَيَسَّر وسَهَّلَ مِنْهُ مَا تَعَسَّر»[١].

شيوخه:

١-شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

٢-الحافظ أبو الحجاج يوسف المزي رَحِمَهُ اللَّهُ.

[١] «البداية والنهاية» (١٤/ ٣٢).

٣-الحافظ أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٤-الشيخ أبو العباس أحمد الحجار الشهير بـ«ابن الشحنة».

٥-الشيخ أبو إسحاق إبراهيم الفزاري رَحِمَهُ اللَّهُ.

٦- الحافظ كمال الدين عبد الوهاب الشهير بـ«ابن قاضي شهبة».

٧- الإمام كمال الدين أبو المعالي محمد بن الزملكاني رَحِمَهُ اللَّهُ.

٨- الإمام محيي الدين أبو زكريا يحيى الشيباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

٩- الإمام علم الدين محمد القاسم البرزالي رَحِمَهُ اللَّهُ.

١٠- الشيخ شمس الدين أبو نصر محمد الشيرازي رَحِمَهُ اللَّهُ.

١١- الشيخ شمس الدين محمود الأصبهاني رَحِمَهُ اللَّهُ.

١٢- عفيف الدين إسحاق بن يحيى الآمدي الأصبهاني رَحِمَهُ اللَّهُ.

١٣- الشيخ بهاء الدين القاسم بن عساكر رَحِمَهُ اللَّهُ.

١٤- أبو محمد عيسى بن المطعم رَحِمَهُ اللَّهُ.

١٥- عفيف الدين محمد بن عمر الصقلي رَحِمَهُ اللَّهُ.

١٦- الشيخ أبو بكر محمد بن الرضى الصالحي رَحِمَهُ اللَّهُ.

١٧- محمد بن السويدي، بارع في الطب رَحِمَهُ اللَّهُ.

١٨- الشيخ أبو عبد الله بن محمد بن حسين بن غيلان رَحِمَهُ اللَّهُ.

١٩- الحافظ أبو محمد عبد المؤمن الدمياطي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٢٠- موسى بن علي الجيلي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٢١- جمال الدين سليمان بن الخطيب قاضي القضاة رَحِمَهُ اللَّهُ.

٢٢- محمد بن جعفر اللباد شيخ القراءات رَحِمَهُ اللَّهُ.

٢٣- شمس الدين محمد بن بركات رَحِمَهُ اللَّهُ.

٢٤-شمس الدين أبو محمد عبد الله المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٢٥-الشيخ نجم الدين بن العسقلاني رَحِمَهُ اللَّهُ.

٢٦-جمال الدين أبو العباس أحمد بن القلانسي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٢٧-الشيخ عمر بن أبي بكر البسطي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٢٨-ضياء الدين عبد الله الزربندي النحوي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٢٩- أبو الحسن علي بن محمد بن المنتزه رَحِمَهُ اللَّهُ.

٣٠- الشيخ محمد بن الزراد رَحِمَهُ اللَّهُ.

تلاميذه:

١-الحافظ علاء الدين بن حجي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٢-محمد بن محمد بن خضر القرشي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٣-شرف الدين مسعود الأنطاكي النحوي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٤-محمد بن أبي محمد بن الجزري شيخ علم القراءات رَحِمَهُ اللَّهُ.

٥-ابنه محمد بن إسماعيل بن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ.

٦-الإمام ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٧-الحافظ أبو المحاسن الحسَيني رَحِمَهُ اللَّهُ.

مؤلفاته:

أ- في علوم القرآن:

١-تفسير القرآن العظيم.

٢-فضائل القرآن: وهو ملحق بالتفسير في النُسْخَةِ البريطانية، والنُسْخَةِ المَكِّية. وقد طُبِعَتْ مُفْرَدَةً بتحقيق الأستاذ محمد البنا في مؤسسة علوم القرآن ببيروت.

ب- في السنة وعلومها:

٣-أحاديث الأصول.

٤-شرح صحيح البخاري.

٥-التكميل في الجرح والتعديل ومعرفة الثقات والمجاهيل: منه نسخة بدار الكتب المصرية برقم (٢٤٢٢٧) في مجلدين.

٦-اختصار علوم الحديث: نشر بمكة المكرمة سنة (١٣٥٣ هـ) بتحقيق الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة، ثم شرحه الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ، وطبع بالقاهرة سنة (١٣٥٥ هـ).

٧-جامع المسانيد والسنن الهادي لأقوم سنن: منه نسخة بدار الكتب المصرية برقم (١٨٤) حديث، ونشره مؤخرًا الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي، وطبع بدار الكتب العلمية ببيروت.

٨-مسند أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٩-مسند عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نشره الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي، وطبع بدار الوفاء بمصر.

١٠-الأحكام الصغرى في الحديث.

١١-تخريج أحاديث أدلة التنبيه في فقه الشافعية.

١٢-تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب: طبع مؤخرًا بتحقيق الكبيسي، ونشر في مكة.

١٣-مختصر كتاب «المدخل إلى كتاب السنن» للبيهقي.

١٤-جزء في حديث الصور.

١٥-جزء في الرد على حديث السجل.

١٦-جزء في الأحاديث الواردة في فضل أيام العشرة من ذي الحجة.

١٧-جزء في الأحاديث الواردة في قتل الكلاب.

١٨-جزء في الأحاديث الواردة في كفارة المجلس.

جـ-في الفقه وأصوله:

١٩-الأحكام الكبرى.

٢٠-كتاب الصيام.

٢١-أحكام التنبيه.

٢٢-جزء في الصلاة الوسطى.

٢٣-جزء في ميراث الأبوين مع الإخوة.

٢٤-جزء في الذبيحة التي لم يذكر اسم الله عليها.

٢٥-جزء في الرد على كتاب الجزية.

٢٦-جزء في فضل يوم عرفة.

٢٧-المقدمات في أصول الفقه.

د- في التاريخ والمناقب:

٢٨-البداية والنهاية: مطبوع عدة طبعات في مصر وبيروت، أحسنها الطبعة التي حققها الدكتور علي عبد الستار وآخرون.

٢٩-جزء مفرد في فتح القسطنطينية.

٣٠-السيرة النبوية: مطبوع باسم الفصول في سيرة الرسول بدمشق.

٣١-طبقات الشافعية: منه نسخة في شستربيتى بإيرلندا، وقد طبع مؤخرًا في مصر.

٣٢-الواضح النفيس في مناقب محمد بن إدريس: منه نسخة في شستربيتى بإيرلندا.

٣٣-مناقب ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

٣٤-مقدمة في الأنساب.

ثناء العلماء عليه:

كان الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ، من أفذاذ العلماء في عصره، أثنى عليه معاصروه ومن بعدهم الثناء الجم:

فقد قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في طبقات شيوخه: «وسمعت مع الفقيه المفتي المحدِّث، ذي الفضائل، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير البصروي الشافعي.. سمع من ابن الشحنة وابن الزراد وطائفة، له عناية بالرجال والمتون والفقه، خرَّج وناظر وصنف وفسر وتقدم» [١].

وقال تلميذه الحافظ أبو المحاسن الحسيني رَحِمَهُ اللَّهُ: «صاهر شيخنا أبا الحجاج المزي فأكثر، وأفتى ودرس وناظر، وبرع في الفقه والتفسير والنحو وأمعن النظر في الرجال والعلل»[٢].

وقال العلامة ابن ناصر الدين رَحِمَهُ اللَّهُ: «الشيخ الإمام العلامة الحافظ عماد الدين، ثقة المحدثين، عمدة المؤرخين، علم المفسرين» [٣].

وقال ابن تغري بردي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لازم الاشتغال، ودأب وحصل وكتب وبرع في الفقه والتفسير والفقه والعربية وغير ذلك، وأفتى ودرس إلى أن توفى»[٤].

وقال ابن حجر العسقلاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان كثير الاستحضار، حسن المفاكهة، سارت

[١] «طبقات الحفاظ» للذهبي (٤/ ٢٩)، و«عمدة التفسير» لأحمد شاكر (١/ ٢٥).

[٢] «ذيل تذكرة الحفاظ» (ص ٥٨)، و«عمدة التفسير» (١/ ٢٦).

[٣] «الرد الوافر» (ص ٩٢).

[٤] «النجوم الزاهرة» (١١/ ١٢٣).

تصانيفه في البلاد في حياته، وانتفع الناس بها بعد وفاته» [١].

وقال ابن حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ: «إمام روى التسبيح والتهليل، وزعيم أرباب التأويل، سمع وجمع وصنف، وأطرب الأسماع بالفتوى وشنف، وحدث وأفاد، وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رياسة العلم في التاريخ، والحديث والتفسير» [٢].

وقال العيني رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان قدوة العلماء والحفاظ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ، وسمع وجمع وصنف، ودرس، وحدث، وألف، وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهى إليه رياسة علم التاريخ والحديث والتفسير وله مصنفات عديدة مفيدة» [٣].

وقال تلميذه ابن حجي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أحفظ من أدركناه لمتون الأحاديث، وأعرفهم بجرحها ورجالها وصحيحها وسقيمها، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك، وكان يستحضر شيئا كثيرا من الفقه والتاريخ، قليل النسيان، وكان فقيها جيد الفهم، ويشارك في العربية مشاركة جيدة، ونظم الشعر، وما أعرف أني اجتمعت به على كثرة ترددي إليه إلا واستفدت منه».

وفاته ورثاؤه:

في يوم الخميس السادس والعشرين من شهر شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة

---

[١] «الدرر الكامنة» (١/ ٤٤٥).

[٢] «شذرات الذهب» (٦/ ٢٣٢).

[٣] «النجوم الزاهرة» (١١/ ١٢٣).

توفي الحافظ ابن كثير بدمشق، ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد ذكر ابن ناصر الدين رَحِمَهُ اللَّهُ : «كانت له جنازة حافلة مشهودة، ودفن بوصية منه في تربة شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ بمقبرة الصوفية».

وقد قيل في رثائه رَحِمَهُ اللَّهُ:

لفقدك طلاب العلوم تأسفوا وجادوا بدمع لا يبير غزير

ولو مزجوا ماء المدامع بالدما لكان قليلا فيك يا بن كثير[٤]

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

[٤] «شذرات الذهب» لابن العماد (٦/ ٢٣٢).

استفدت هذه الترجمة من مقدمة «تفسير القرآن العظيم» للإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ، طبعة دار طيبة للنشر والتوزيع.

الصفا والمروة

قال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [سُورَةُ البَقَرَة].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«فقد بين الله تعالى أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله، أي: مما شرع الله تعالى لإبراهيم الخليل في مناسك الحج...أن أصل ذلك مأخوذ من تطواف هاجر وترددها بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها، لما نفد ماؤها وزادُها، حين تركهما إبراهيم عليه السلام هنالك ليس عندهما أحد من الناس، فلما خافت الضيعة على ولدها هنالك، ونفد ما عندها قامت تطلب الغوث من الله، عز وجل، فلم تزل تردد في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة متذللة خائفة وجلة مضطرة فقيرة إلى الله عز وجل، حتى كشف الله كربتها، وآنس غربتها، وفرج شدتها، وأنبع لها زمزم التي ماؤها طعام طعم، وشفاء سقم، فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه، وأن يلتجئ إلى الله عز وجل، ليُزيح ما هو به من النقائص والعيوب، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم وأن يثبته عليه إلى مماته، وأن يحوّله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي، إلى حال

الكمال والغُفران والسداد والاستقامة، كما فعل بهاجر عليها السلام» [تَفْسِيرُ القُرْآنِ العَظِيمِ (١/ ٢٦٢)][١].

[١] **فائدة:** حول سعي المرأة بين الصفا والمروة

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أما المرأة ففيها وجهان (الصحيح) المشهور به قطع الجمهور أنها لا تسعي في موضع السعي بل تمشي جميع المسافة سواء كانت نهارا أو ليلا في الخلوة لأنها عورة وأمرها مبني على الستر ولهذا لا ترمل في الطواف.

(والثاني): أنها إن سعت في الليل حال خلو المسعى استحب لها السعي في موضع السعي كالرجل والله أعلم» «المجموع شرح المهذب» (٨/ ٧٥).

علَّق العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ عن كلام الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولعل هذا هو الأقرب؛ فإن أصل مشروعية السعي إنما سعي هاجر أم إسماعيل تستغيث لابنها العطشان» «مناسك الحج والعمرة» (ص٢٥).

آياتٌ ومعجزاتٌ

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [آل عمران].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى ٥السِّحر وتعظيم السَّحَرة، فبعثه الله بمعجزة بَهَرَت الأبصار وحَيَّرت كل سَحَّار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبَّار انقادُوا للإسلام، وصاروا من عُبَّادِ الله الأبرار، وأمَّا عيسى ٥، فبُعِث في زمن الأطِبَّاء

وأصحاب عِلْمِ الطبيعة فجاءهم مِنَ الآيات بما لاَ سَبِيل لأحدٍ إليْه إِلَّا أنْ يكون مُؤَيَّدًا مِنَ الذِي شَرَعَ الشَّرِيعَة، فَمِنْ أين للطَّبيب قدرة على إحياء الجماد أو على مداواة الأكمه والأبرص، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التّنَاد؟! وكذلك محمد ﷺ بُعِثَ في زمان الفُصَحَاء والبُلَغَاء ونحارير الشُعَرَاء، فأتاهم بكتاب من الله ﷻ، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله، لم يستطيعوا أبدا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، وما ذاك إلَّا لأنَّ كلام الرب ﷻ لا يشبه كلام الخلق أبدا» [تَفْسِيرُ القُرْآنِ العَظِيمِ (١/ ٤٧٦)][١].

---

[١] قال الإمام ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «كل نبي أُعطي معجزة خاصة به لم يعطها بعينها غيره تحدَّى بها قومه، وكانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحال قومه كما كان السِّحر فاشيا عند فرعون فجاءه موسى ٥ بالعصا على صورة ما يصنع السحرة لكنها تلقَّفت ما صَنَعُوا، ولم يقع ذلك بعينه لغيره، وكذلك إحياء عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لكون الأطباء والحكماء كانوا في ذلك الزمان في غاية الظهور فأتاهم من جنس عملهم بما لم تصل قدرتهم إليه، ولهذا لما كان العرب الذين بعث فيهم النبي ﷺ في الغاية من البلاغة جاءهم بالقرآن الذي تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فلم يقدروا على ذلك» «فتح الباري» (٨/ ٦٩٠)، وانظر غير مأمور: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٦٧).

فائدة:

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما أوتي نبينا محمد ﷺ من نبع الماء وانفجاره من يده وبين أصابعه أعظم في المعجزة (يعني من معجزة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في تفجر اثنتي عشرة عينا من الحجر) فإنا نشاهد الماء يتفجر من الأحجار آناء الليل وآناء النهار، ومعجزة نبينا ٥ لم تكن لنبي قبل نبينا ﷺ يخرج الماء من بين لحم ودم! روى الأئمة الثقات والفقهاء الإثبات عن عبد الله قال: كنا مع النبي ﷺ فلم نجد ماء فأتي بتور فأدخل يده فيه: فلقد رأيت الماء يتفجر من بين أصابعه ويقول «حي على الطهور». قال الأعمش: فحدثني سالم بن أبي الجعد قال قلت لجابر كم كنتم يومئذ؟ قال: ألفا وخمسمائة. لفظ النسائي» «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٣١٥).

تَدَبَّر وَتَفَكَّر

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران].

■ قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«ومعنى الآية أنَّه يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: هذه في ارتفاعها واتساعها، وهذه في انخفاضها وكثافتها واتضاعها وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيَّارات، وثوابتَ وبحار، وجبال وقفار وأشجار ونبات وزروع وثمار، وحيوان ومعادن ومنافع، مختلفة الألوان والطُّعوم والرَوَائح والخواص ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: تعاقبهما وتَقَارضهما الطول والقصر، فتارة يطُول هذا ويقصر هذا، ثم يعتدلان، ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان

قصيرا، ويقصر الذي كان طويلا وكل ذلك تقدير العزيز الحكيم؛ ولهذا قال: ﴿لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: العقول التَّامة الذكيَّة التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها، وليسوا كالصُّمِّ البُكْم الذين لا يعقلون» [تَفْسِيرُ القُرْآنِ العَظِيمِ (١/ ٥٧٠)][١].

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

[١] عَنْ عَطَاءٍ، قَالَ: دَخَلْتُ أَنَا وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ، عَلَى عَائِشَةَ فَقَالَتْ لِعُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ: قَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَزُورَنَا، فقَالَ: أَقُولُ يَا أُمَّهْ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ: زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا، قَالَ: فَقَالَتْ: دَعُونَا مِنْ رَطَانَتِكُمْ هَذِهِ، قَالَ ابْنُ عُمَيْرٍ: أَخْبِرِينَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتِهِ مِنْ رَسُولِ ﷺ، قَالَ: فَسَكَتَتْ ثُمَّ قَالَتْ: لَمَّا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي، قَالَ ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي**» **قُلْتُ: وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ، قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَّ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟، قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴾» الْآيَةَ كُلَّهَا**» رواه ابن حبان في «صحيحه» (٦٢٠)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٥٨٣).

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾

قال الله تعالى: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٥٨﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ].

■ قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«وقد أوضح الله الأمر وجلاه وبينه وأظهره في القرآن العظيم، الذي أنزله على رسوله الكريم، المؤيد بالمعجزات والبينات والدلائل الواضحات، فقال تعالى وهو أصدق القائلين، ورب العالمين، المطلع على السرائر والضمائر، الذي يعلم السر في السموات والأرض، العالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون: ﴿ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡ﴾ أي: رأوا شبهه فظنوه إياه؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٥٨﴾ يعني بذلك: من ادعى قتله من اليهود، ومن سَلَّمه من جهال النصارى، كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال وسُعُر. ولهذا قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾ أي: وما قتلوه متيقنين أنه هو، بل شاكين متوهمين، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ أي: منيع الجناب لا يرام جنابه،

ولا يضام من لاذ ببابه ﴿حَكِيمًا﴾ أي: في جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التي يخلقها وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، والسلطان العظيم، والأمر القديم» [تَفْسِيرُ القُرْآنِ العَظِيمِ (١/ ٧٥١)][١].

[١] قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «**محمد برأ المسيح وأمه من افتراء أعدائهما وأنزله المنزلة العالية ونزه الله عن افتراء المثلثة عليه:**

فهذه أقوال أعداء المسيح من اليهود والغالين فيه من النصارى المثلثة عباد الصليب فبعث الله محمدا ﷺ وبما أزال الشبهة في أمره وكشف الغمة وبرأ المسيح وأمه من افتراء اليهود وبهتهم وكذبهم عليهما ونزه رب العالمين وخالق المسيح وأمه مما افتراه عليه المثلثة عباد الصليب الذين سبوه أعظم السب فأنزل المسيح أخاه بالمنزلة التي أنزله الله بها وهي أشرف منازله فآمن به وصدقه وشهد له بأنه عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها الى مريم العذراء البتول الطاهرة الصديقة سيدة نساء العالمين في زمانها وقرر معجزات المسيح وآياته وأخبر عن ربه تعالى بتخليد من كفر بالمسيح في النار وأن ربه تعالى أكرم عبده ورسوله ونزهه وصانه أن ينال إخوان القردة منه ما زعمته النصارى أنهم نالوه منه بل رفعه إليه مؤيدا منصورا لم يشكه أعداؤه بشوكة ولا نالته أيديهم بأذى فرفعه إليه وأسكنه سماءه وسيعيده إلى الأرض ينتقم به من مسيح الضلال وأتباعه ثم يكسر به الصليب ويقتل به الخنزير ويعلي به الاسلام وينصر به ملة أخيه وأولى الناس به محمد عليهما أفضل الصلاة والسلام فإذا وضع هذا القول في المسيح في كفة، وقول عباد الصليب

المثلثة في كفة؛ تبين لكل من له أدنى مسكة من عقل ما بينهما من التفاوت، وأن تفاوتهما كتفاوت ما بينه وبين قول المغضوب عليهم فيه، وبالله التوفيق» «هداية الحيارى» (ص ١٦٧).

مُحَمَّد رَسُولُ الله ﷺ

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾ [سُورَةُ المَائِدَة][1].

■ قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«والمقصود أن الله بعث محمدا ﷺ على فَتْرَةٍ منَ الرُّسُل، وطُمُوس من السُّبل، وتغيُّر الأديان، وكَثْرَة عِبَادة الأوْثان والنِّيران والصُّلْبان، فكانت النِّعمة به أتم النِّعَم،

---

[١] قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله [«المدهش» (١/ ٢٥٠)]: «لم يزل ذكر نبينا ﷺ منشورا.. أُخِذ له ميثاق الأنبياء على تصديقه، في بعض درسه علم إدريس عليه السلام، في ضمن وجده حزن يعقوب عليه السلام، في سر جِدِّه صبر أيوب عليه السلام، في طي خوفه بكاء داود عليه السلام، بعض غنى نفسه يزيد على ملك سليمان عليه السلام، عَبَر بعْد خُلِّ خلال الخلة للخليل عليه السلام، ونال تكليم موسى عليه السلام، واسترجح له النظر عند قاب قوسين، فهو جملة الجمال وكل الكمال، وواسطة العقد وزينة الدهر، يزيد على الأنبياء زيادة الشمس على البدر، والبحر على القطر، فهو صدرهم وبدرهم وعليه مدار أمرهم، قطب فلكهم، عين كتيبتهم، واسطة قلادتهم، نقش فصهم بيت قصيدتهم حاتمهم خاتمهم:

شمس ضحاها هلال ليلتها ... در تقاصيرها زبرجدها»

والحاجة إليه أَمْرٌ عمم، فإنَّ الفساد كان قد عمّ جميع البلاد، والطغيان والجهل قد ظهر في سائر العباد، إلَّا قليلا من المُتَمَسِّكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين، من بعض أحبار اليهود وعُبَّاد النصارى والصَّابئين» [تَفْسِيرُ القُرْآنِ العَظِيمِ (٢/ ٥١)].

خير الناس قرني

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾ [التوبة].

■ قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أوَّلا فأوَّلا، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وحضرموت وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجا، شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لأنهم أهل الكتاب، فبلغ تبوك ثم رجع لأجل جهد النَّاس وجدب البلاد وضيق الحال، وذلك سنة تسع من هجرته عليه السلام ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجة الوداع، ثم عاجلته المنيَّةُ صلوات الله وسلامه عليه بعد حجته بأحد وثمانين يوما، فاختاره الله لما

عنده وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد مال الدين ميلة كاد أن ينجفل فثبته الله تعالى به، فوطد القواعد وثبت الدعائم، ورد شارد الدين وهو راغم، ورد أهل الردة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطغاة، وبيَّن الحق لمن جهله، وأدى عن الرسول ما حمله، ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلبان، وإلى الفرس عبدة النيران، ففتح الله ببركة سفارته البلاد، وأرغم أنف كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد، وأنفق كنوزهما في سبيل الله كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ، وكان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده، وولي عهده الفاروق الأواب شهيد المحراب أبي حفص عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأرغم الله به أُنُوف الكفرة الملحدين، وقَمَع الطُّغاة والمنافقين، واستولى على الممالك شرقا وغربا، وحُمِلَت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بُعْدًا وقُربا، ففرَّقَها على الوجه الشرعي، والسبيل المرضي، ثم لما مات شهيدا وقد عاش حميدا، أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار، على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شهيد الدار.

فكسى الإسلام رياسته حلة سابغة، وامتدت في سائر الأقاليم على رقاب العباد حجة الله البالغة، فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وعَلَتْ كلمة الله وظهر دينه، وبلغت الملة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها، وكلما علوا أمة انتقلوا

إلى من بعدهم ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار، امتثالا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ [تَفْسِيرُ القُرْآنِ العَظِيمِ (٢/ ٥٢٦)][١].

[١] قال الإمام ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «لمَّا جلى الرسول ﷺ عروس الإسلام وأبرزها للبصائر من خدرها، أخرج أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ماله كله نثارا لهذا العروس، فأخرج عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النصف موافقة له فقام عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بوليمة العرس، فجهز جيش العسرة فعلم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن الدنيا ضرة هذه العروس، وأنهما لا يجتمعان فبت طلاقها ثلاثا، فالحمد لله الذي خصَّنا بهذه الرحمة، وأسبغ علينا هذه النعمة، وأعطانا بركة نبينا هذه الفضائل الجمَّة، فقال لنا: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ...﴾.

من أين في الأمم مثل أبي بكر الصديق، أو عمر الذي ما سلك طريقا إلا هرب الشيطان من ذلك الطريق؟ أو عثمان الصابر على مر الضيق، أو علي بحر العلم العميق؟ أو حمزة والعباس؟ أفيهم مثل طلحة والزبير القرينين، أو مثل سعد وسعيد وهيهات من أين؟ مثل ابن عوف وأبي عبيدة...إن شبهتم بهم فقد أبعدتم القياس.

من أين في زهاد الأمم مثل أويس، أو في عبادهم مثل عامر بن عبد قيس؟ أو في خائفهم مثل عمر بن عبد العزيز؟ هيهات ليس ضوء الشمس كالمقياس.

أفي علمائهم مثل أبي حنيفة، ومالك، والشافعي السديد المسالك؟، كيف تمدحه وهو أجل من ذلك؟ ما أحسن بنيانه والأساس، أفيهم أعلى من الحسن البصري وأنبل، أو ابن سيرين الذي بالورع تقبل؟ أو مثل أحمد الذي بذله نفسه لله وسبل، تالله ما في الأمم مثل ابن حنبل؟ ارفع صوتك بهذا ولا بأس: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ...﴾» «لطائف المعارف» (ص ١١٨).

وقال الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «... كلُّهم أخيار، وجميعهم أبرار، ولا مثل صاحب الغار، وأين نظير فتَّاح الأمصار، ومن يشبه قتيل الدار، ولقد افتقروا إلى المجاهد بذي الفقار، بِحُبِّ هؤلاء تُرجى الجنة وتُتَّقي النار..» «المدهش(١/ ٢٦٥)».

قصة السحرة مع موسى عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [سُورَةُ يُونُسَ].

■ قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«ذكر تعالى قصة السحرة مع موسى، عليه السلام، في ﴿سُورَةُ الأَعْرَافِ﴾، وقد تقدم الكلام عليها هناك، وفي هذه السورة، وفي ﴿سُورَةُ طه﴾، وفي ﴿الشُّعَرَاءِ﴾؛ وذلك أن فرعون -لعنه الله -أراد أن يَتَهَرَّج على الناس، ويعارض ما جاء به موسى عليه السلام، من الحق المبين، بزخارف السحرة والمشعبذين، فانعكَس عليه النظام، ولم يحصل له ذلك المرام، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام، و ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ] فظن فرعون أن يستنصر بالسحَّار، على رسول عالم الأسرار، فخاب

وخسر الجنة، واستوجب النار»[تَفْسِيرُ القُرْآنِ العَظِيمِ (٢/ ٥٥٧)][١].

[١] قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «والعبر في قصة موسى كثيرة، ولو أن أحدا انتدب لجمع القصة من الآيات في كل سورة ثم يستنتج ما حصل في هذه القصة من العبر لكان جيدا» «تفسير القرآن الكريم» (١٠/ ٣٤٩).

لا تؤثر الأدنى على الأعلى

لا تؤثـر الأدنى علـى الأعلـى فتحـرم ذا وذا يـا ذلة الحرمان

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۘ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [هُودٍ].

■ قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«...يخبر تعالى عَنْ مآلهم أَنَّهم أخسر النَّاس صفقةً في الدَّار الآخرة لأنَّهم استبدلوا الدَّركات عن الدرجات، واعْتَاضُوا عنْ نعيم الجِنان بِحَمِيم آن، وعنْ شُرب الرَّحيق المختوم بِسَموم وحميم، وظِلٍّ مِنْ يَحْمُوم، وعن الحُورِ العين

بطعام من غِسْلِين،وعن القُصُور العَالية بالهَاوية، وعَنْ قُرْبِ الرَّحمْن ورؤيته بِغضب الدَّيان وعقوبته، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون» [تَفْسِيرُ القُرْآنِ العَظِيمِ (٢/ ٥٧٦)][١].

[١] قال الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإنَّ لله وإنَّا إليه راجعون على **مَنْ بَاعَ نفسَه في سُوق الخُسْران**، وترك العِزِّ ورَضِيَ بالهَوَان، وبذَلَ مُهْجتَه لعذاب النيران، وبارز بالخطايا المَلِكَ الديان..» «بستان الواعظين» (ص٤٤).

إِنَّهَا الجَنَّةُ وَكَفَى

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [هُودٍ].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنَّى بِذِكْرِ السُّعداء، وهم الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات، فآمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولا وفعلا من الإتيان بالطاعات وترك المنكرات وبهذا وَرِثُوا الجَنَّات، المشتملة على الغُرَفِ العَالِيَات، والسُّرُر المصفُوفَات، والقُطُوف الدَّانِيَات، والفُرُش المُرْتفعات، والحِسَان الخَيِّرات، والفواكه المتنوعات، والمآكل المشتهيات، والمشارب المستلذات، والنَّظر إلى خالق الأرض والسَّماوات، وهم في ذلك خالدون لا يموتون ولا يَهْرَمون، ولا يمرضون ولا ينامون، ولا يَتَغَوَّطُون ولا يبصقون ولا

يَتَمَخَّطُون، إنْ هو إِلَّا رَشَح مسك يعرقون» [تَفْسِيرُ القُرْآنِ العَظِيمِ (٢/ ٥٧٦)][١].

[١] «اعلم أن تلك الدار التي عرفت همومها وغمومها (أي الدنيا) يقابلها دار أخرى فتأمل في نعيمها وسرورها، فإن من بَعُد مِن إحداهما استقر لا محالة في الأخرى فَسُقْ نفْسك بسوط التَّقوى لِتَنَال المُلك العظيم، وتسْلم من العذاب الأليم، فتفكر في أهل الجنة وفي وجوههم نضرة النعيم، يُسقون من رحيق مختوم جالسين على منابر الياقوت، متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل محفوفة بالغلمان والولدان مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان كأنهن الياقوت والمرجان، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، ينظرون فيها إلى وجه المَلِك الكريم، وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم، وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لا يخافون فيها ولا يحزنون، ومن ريب المنون آمنون، فيا عجبا لمن يُؤْمِنُ بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لا يموت أهلها! ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها! كيف يأنس ويتهنأ بعيش دونها؟! والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان لكان جديرا بأن يهجر الدنيا بسببها وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتنغص من ضرورته، كيف وأهلها ملوك آمنون، وفي أنواع السرور مُمَتَّعون، لهم فيها كل ما يشتهون، وإلى وجه الله الكريم يَنْظرون، وينالون بالنَّظَر مِنَ الله ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان، ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرآن، فليس وراء بيان الله تعالى بيان، واقرأ قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [سُورَةُ الرَّحْمَٰنِ] إلى آخر ﴿سُورَةُ الرَّحْمَٰنِ﴾، واقرأ ﴿سُورَةُ الْوَاقِعَةِ﴾ و﴿سُورَةُ الْإِنسَٰنِ﴾، وغيرها من السور ففيها ما يدلك على أن ثمة -ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر- كما ورد في الأثر، ويكفي من الاطلاع على جملتها ما بينا وقد ورد في تفصيل صفاتها كثير من الأخبار، المدونة في الأسفار الكبار»«موعظة المؤمنين» (ص ٤٨٠).

آيَات كَونِيَّةٌ

قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يُوسُفَ].

■ قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التَفَكُّر في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات، ثوابت وسَيَّارات، وأفلاك دائرات، والجميعُ مُسَخَّرَات، وكم في الأرض من قطع متجاورات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمات، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات، وحيوان ونبات، وثمرات متشابهة ومختلفات، في الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات، المُتَفَرِّد بالدَّوَام والبَقَاء، والصَّمَدِية للأسماء

والصفات، وغير ذلك» [تَفْسِيرُ القُرْآنِ العَظِيمِ (٢/ ٦٤١)][1].

[١] قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فآية السماوات: ارتفاعها بغير عمد من تحتها ولا علائق من فوقها، ودل ذلك على القدرة وخرق العادة.

ولو جاء نبي فتحدي بوقوف جبل في الهواء دون علاقة كان معجزا.

ثم ما فيها من الشمس والقمر والنجوم السائرة، والكواكب الزاهرة، شارقة وغاربة نيرة وممحوة آية ثانية.

وآية الأرض: بحارها وأنهارها ومعادنها وشجرها وسهلها ووعرها» «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٤٧٨).

فَرِيقٌ فِي الجَنَّة وَفَرِيقٌ فِي السَّعِير

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤﴾ [الحج].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«لمَا ذَكَرَ أَهْلَ الضَّلالة الأَشْقِيَاء، عَطَفَ بِذِكْرِ الأَبْرَار السُّعَدَاء، مِنَ الذِين آمنوا بِقُلُوبهم وصَدَقُوا إيمانهم بأفعالهم فعمِلوا الصَّالحات، من جميع أنواع القُرُبَات، وتركوا المنكرات، فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات، في روضات

الجنات»[تَفْسِيرُ القُرْآنِ العَظِيمِ (٣/ ٢٨٠)][١].

[١] قال الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «يجد الطائع الثواب ويجد الفاسق العذاب، يجد المؤمن لذة الوصال بالنظر إلى الكبير المتعال في دار الخلد والجلال، ويجد الكافر العذاب والنكال، والسلاسل والأغلال، والجحيم والخبال، وفظاعة الأهوال.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ يجد المؤمن النعيم والكرامة، والأمن في القيامة، والعافية والسلامة، والحلول في دار المقامة، ويجد الكافر الخزي والندامة، والعذاب والملامة.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ يجد المؤمن الدرجات ويجد الكافر العقوبات، يجد المؤمن السرور ويجد الفاجر الثبور، يجد المؤمن النعيم والخلود ويجد الفاجر عذابا غير مردود، ويجد المؤمن ما قدم من الإحسان في درجات الجنان في جوار الرحمن مع الخيرات الحسان، ويجد الفاجر ما عمل من العصيان في سموم النيران في جوار الشيطان مع الذل والهوان.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ في يوم هائل عظيم يوم تكثر فيه الغموم وتعظم فيه الهموم، ويفصل الرب بين عباده وهو الحي القيوم.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ يوم تندم على القبائح، وتتأسف عند معاينة الفضائح، وتوجد الأعمال في الصحائف الصحائح..» «بستان الواعظين» (ص ٩٣).

إنَّه اللَّه ﷻ

قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر].

■ قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«يخبر تعالى عن علمه التام المُحيط بجميع الأشياء، جَلِيلها وحَقِيرها، صَغِيرها وكَبِيرها، دَقِيقها ولَطِيفها؛ ليحذر النَّاس عِلْمَه فيهم، فَيَسْتَحْيُوا مِنْ الله حَقّ الحياء، ويَتَّقُوهُ حَقَّ تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه تعالى يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر» [تَفْسِيرُ القُرْآنِ العَظِيمِ (٤/ ٩٦)][١].

---

[١] قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «(الله) فعَّال لما يُرِيد، فَوْقَ كُلِّ شَيْء، ومع كُلِّ شَيْء، وقادر على كُلِّ شَيْء، ومقيم لكل شيء، آمر ناه متكلم بكلماته الدينية والكونية، أكبر من كل شيء، وأجمل من كل شيء، أرحم الراحمين، وأقدر القادرين، وأحكم الحاكمين، فالقرآن أُنزل لتعريف عباده به، وبصراطه الموصل إليه، وبحال السالكين بعد الوصول إليه» «الفوائد» (ص ١٨٠).

بلى قد آن

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد].

قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«فيه إشارة إلى أن الله تعالى يُلَيِّنُ القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضَلتها، ويُفَرِّج الكروب بعد شِدَّتِها، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهَتَّان الوابل، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدَلَائِل، ويُولِج إليها النُّور بعد أن كانت مُقْفَلَة لا يَصِل إليها الوَاصِل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضَّلال، والمُضِلُّ لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فَعَّال، وهو الحكيم العدل في جميع الفِعَال، اللَّطيف الخبير

الكبير المتعال» [تَفْسِيرُ القُرْآنِ العَظِيمِ (٤/ ٣٩٧)] [١].

[١] قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال علماؤنا: الباعث على التوبة وحلِّ الإصرار إدامة الفكر في كتاب الله العزيز الغفَّار، وما ذكره الله سبحانه من تفاصيل الجنة ووعد به المطيعين، وما وصفه من عذاب النار وتهدَّد به العاصين، ودام على ذلك حتى قَوِيَ خوفه ورجاؤه فدعا الله رغبا ورهبا، والرَّغبة والرَّهبة ثمرة الخوف والرَّجاء، يخاف من العقاب ويرجو الثواب، والله الموفق للصواب» «الجامع لأحكام القرآن» (٣/ ٨٤).

قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال أبو عمار الحسين بن حريث، عن الفضل بن موسى، قال: كان الفضيل بن عياض شاطرا (*) يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس، وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينا هو يرتقي الجدران إليها، إذا سمع تاليا يتلو ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ فلما سمعها، قال: بلى يا رب، قد آن، فرجع، فآواه الليل إلى خربة، فإذا فيها سابلة، فقال بعضهم: نرحل، وقال بعضهم: حتى نصبح فإن فضيلا على الطريق يقطع علينا.

قال: ففكرت، وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقوم من المسلمين هاهنا، يخافوني، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لارتدع، اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام»«سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٢٣).

(*) **تنبيه**: الشاطر في اللغة: هو الخبيث الفاجر كما في «المعجم الوسيط» (ص٤٨٢) و«لسان العرب» (٤/ ٤٠٧)، غير أن العامة نزلوه غير منزلته وجعلوه بمعنى الماهر وهذا خطأ بيِّن، قال ابن الأثير: «وقد استعمل لفظة الشاطر والشاطرة والشطار كثيرا وهي من الألفاظ ابتذلها العامة حتى سئمت من ابتذالها» وانظر كلام العلامة بكر أبوزيد رَحِمَهُ اللَّهُ في «معجم المناهي اللفظية» (ص٣١٤).

﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر].

■ قال الإمام ابن كثير رحمه الله:

«وهذا يرجع إلى ما قلناه مِنْ أَنَّ الأَبْتَر الذي إذا مات انقطع ذِكْرُه فَتَوَهَّمُوا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذِكْرُه وحاشا وكلا بل قد أبقى الله ذِكْرَه على رؤوس الأشهاد، وأوجب شَرْعَه على رِقَاب العِبَاد، مُسْتَمِرًّا على دَوَامِ الآبَاد، إلى يوم المَحْشَر والمَعَاد، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم التَّنَاد» [تَفْسِيرُ القُرْآنِ العَظِيمِ (٤/ ٧٢٧)][1].

---

[١] قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله: «عباد الله ارغبوا فيما رغَّبكم فيه المَلِكُ القَهَّار، مِنْ فَضْلِ الصَّلَاة على نبيه محمَّد المُخْتَار ﷺ، ولا تَغْفَلُوا عَنِ الصَّلَاة عَلَيْه بِاللَّيل والنَّهار، فَإِنَّ الله يُنْجِيكُمْ بها مِنْ عَذَابِ النَّار، وَيُدْخِلُكم جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهَار..» «بستان الواعظين» (ص ٢٩٧).

مِنْ جَمِيلِ كَلَامِ الإِمَامِ ابن سَعْدِي رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِه

ترجمة مختصرة
للإمام عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله

نسبه:

هو الشيخ أبو عبد الله عبد الرَّحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر آل سعدي من قبيلة تَمِيم.

مولده:

ولد في بلدة عنيزة في القصيم، وذلك بتاريخ ١٢ محرم عام ألف وثلاثمائة وسبع من الهجرة النبوية، وتوفِّيت أُمُّهُ وله أربع سنين، وتوفي والده وله سبع سنين، فتربى يتيمًا وكَفَلَتْه زوجة أبيه رحمها الله، وأَحَبَّتْه أكثر من أولادها وَرَعَتْه حتى شَبَّ، ثم انتقل إلى بيت أخيه الأكبر فقام على رعايته و نشأ نشأة حسنة، وكان قد استرعى الأنظار منذ حَدَاثَة سِنِّه بذكائه ورغبته الشَّدِيدة في العلوم، فقرأ القرآن و حَفِظَه عن ظهْر قلب، وأتقنه وعمره أحد عشر سنة.

طلبه للعلم:

ثم اشتغل في التَّعلُّم على علماء بلده وعلى من قدم بلده من العلماء، فاجتهد وجد حتى نال الحظَّ الأوفر مِنْ كل فنّ مِنْ فنون العلم، ولمَّا بلغ من العمر ثلاثًا وعشرين سنة جلس للتَّدريس فكان يتعلَّم ويُعَلِّم، ويقضي جميع أوقاته في ذلك حتى أنه في عام ألف وثلاثمائة وخمسين صار التدريس ببلده راجعًا إليه، ومعوَّل

جميع الطلبة في التعلم عليه.

بعض مشايخه:

أخذ العلم رَحِمَهُ اللَّهُ عن:

١- الشيخ إبراهيم بن حمد بن جاسر رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو أول مَنْ قرأ عليه وكان رَحِمَهُ اللَّهُ يصف شيخه بحفظه للحديث، ويتحدَّثُ عن روعه ومحبَّته للفقراء مع حاجته ومواساتهم، وكثيراً ما يأتيه الفقير في اليوم الشاتي فيخلع أحد ثوبيه ويلبسه الفقير مع حاجته إليه، وقلة ذات يده رَحِمَهُ اللَّهُ، توفي في الكويت عام ١٣٣٨ هـ.

٢- الشيخ محمد بن عبد الكريم الشبل رَحِمَهُ اللَّهُ، قرأ عليه في الفقه وعلوم العربية وغيرهما، توفي رَحِمَهُ اللَّهُ في عنيزة عام ١٣٤٣ هـ

٣- الشيخ صالح بن عثمان القاضي رَحِمَهُ اللَّهُ (قاضي عنيزة) قرأ عليه في التوحيد والتفسير والفقه وأصوله وفروعه وعلوم العربية، وهو أكثر من قرأ عليه المؤلف ولازمه ملازمة تامة حتى توفي رَحِمَهُ اللَّهُ عام ١٣٥١هـ.

٤- الشيخ عبد الله بن عايض الحربي رَحِمَهُ اللَّهُ.

٥- الشيخ صعب بن عبد الله التويجري رَحِمَهُ اللَّهُ.

٦- الشيخ علي السناني رَحِمَهُ اللَّهُ.

٧- الشيخ علي الناصر أبو واداي رَحِمَهُ اللَّهُ، قرأ عليه في الحديث، وأخذ عنه الأمهات الست وغيرها وأجازه في ذلك.

٨- الشيخ محمد ابن الشيخ عبد العزيز المحمد المانع رَحِمَهُ اللَّهُ (مستشار المعارف في المملكة العربية السعودية) في ذلك الوقت، وقد قرأ عليه في عنيزة، وتوفي رَحِمَهُ اللَّهُ عام١٣٨٥هـ

٩- الشيخ محمد الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ (نزيل الحجاز قديماً ثم الزبير) لما قدم عنيزة وجلس فيها للتدريس قرأ عليه في التفسير والحديث وعلوم العربية، كالنحو والصرف ونحوهما.

أخلاقه:

كان رَحِمَهُ اللَّهُ على جانب كبير من الأخلاق الفاضلة، متواضعاً للصَّغير والكبير والغني والفقير، وكان يقضي بعض وقته في الاجتماع بمن يرغب حضوره فيكون مجلسهم ناديًا علميًا، حيث أنه يحرص أن يحتوي على البحوث العلمية والاجتماعية ويحصل لأهل المجلس فوائد عظمى من هذه البحوث النافعة التي يشغل وقتهم فيها، فتنقلب مجالسهم العادية عبادة ومجالس علمية، ويتكلم مع كل فرد بما يناسبه، ويبحث معه في المواضيع النافعة له دنيا وأخرى، وكثيراً ما يحلّ المشاكل برضاء الطرفين في الصُّلح العادل، وكان ذا شفقة على الفقراء والمساكين والغرباء ماداً يد المساعدة لهم بحسب قدرته ويستعطف لهم المحسنين ممن يعرف عنهم حب الخير في المناسبات، وكان على جانب كبير مِنَ الأدب والعِفَّة والنَّزَاهة والحَزْم في كل أعماله، وكان مِنْ أَحْسَن النَّاس تعليماً وأبلغهم تفهيماً، مرتباً لأوقات التعليم، ويعمل المناظرات بين تلاميذه المُحَصِّلِين لشحذ أفكارهم، ويجعل الجعل لمن يحفظ بعض المتون، وكل من حفظه أعطى الجعل ولا يحرم منه أحد.

ويتشاور مع تلاميذه في اختيار الأنفع من كتب الدراسة، ويُرَجِّحُ ما عليه رغبة أكثرهم ومع التساوي يكون هو الحَكَم، ولا يَمَلُّ التلاميذ من طول وقت الدراسة إذا طال لأنهم يتلذَّذون مِنْ مجالسته، ولذا حصل له من التلاميذ المحصلين عدد كثير.

صفاته الخِلْقِيَّة:

كان قصير القامة، ممتلئ الجسم، أبيض اللون مُشْرَبًا بحُمْرة، مُدَوَّر الوجه طلقه، كثيف اللحية بيضاء، يتلألأ وجهه كأنه فضة، عليه نور في غاية الحسن وصفاوة اللون، نَيِّر لا يُرى إلا مبتسمًا أو بادية أَسَارِير وجهه.

مكانته العلمية:

كان ذا معرفة تامَّة في الفقه، أصوله وفروعه.

وكان أعظم اشتغاله وانتفاعه بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه

ابن القيم رحمهما الله، وحصَلَ له خير كثير بسببهما في علم الأصول والتوحيد والتفسير والفقه وغيرها من العلوم النافعة، وبسبب استنارته بكتب الشيخين المذكورين صار لا يتقيد بالمذهب الحنبلي، بل يُرَجِّحُ ما ترجَّحَ عنده بالدليل الشرعي، وله اليد الطُولى في التفسير، إذ قرأ عدَّة تفاسير وبرع فيها، وألف تفسيراً جليلاً في عدة مجلدات، فسره بالبديهة من غير أن يكون عنده وقت التصنيف كتاب تفسير ولا غيره، ودائماً يقرأ والتلاميذ في القرآن الكريم ويفسِّره ارتجالاً، ويستطرد ويبين من معاني القرآن وفوائده، ويستنبط منه الفوائد البديعة والمعاني الجليلة، حتى أنَّ سامعه يَوَدُّ أَنْ لا يسكت لفصاحته وجزالة لفظه وتوسعه في سياق الأدلة والقصص، ومن اجتمع به وقرأ عليه وبحث معه عرف مكانته في العلم، وكذلك من قرأ مصنفاته وفتاويه.

تلاميذته:

فأما تلاميذه فكثيرون نذكر منهم:

١ـ الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو الذي خَلَفَه في التَّدريس والإفتاء في عنيزة، وهو إمام الجامع الكبير في عنيزة والمدرس في جامعة الإمام بالقصيم، صاحب التصانيف المفيدة والشروح النافعة.

٢ـ الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل رَحِمَهُ اللَّهُ عضو الهيئة القضائية العليا في وزارة العدل السعودية.

٣ـ الشيخ علي بن حمد الصاحي رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان الشيخ قد وكل إليه تدريس صغار الطلبة هو والشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع في حدود ١٣٦٠هـ.

٤ـ الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن صالح البسام رَحِمَهُ اللَّهُ، عضو هيئة التمييز بمكة المكرمة.

٥ـ الشيخ عبد العزيز بن محمد السلمان رَحِمَهُ اللَّهُ، صاحب الكتب النافعة.

وغيرهم كثير.

مؤلفاته:

١ـ «تفسير القرآن الكريم» المسمى «تيسير الكريم في تفسير كلام المنَّان» في خمس مجلدات أكمله في عام ١٣٤٤ هـ وهو مطبوع.

٢ـ «حاشية على الفقه» استدراكًا على جميع الكتب المستعملة في المذهب الحنبلي ولم تطبع.

٣ـ «إرشاد أولي البصائر والألباب لمعرفة الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب» رتبه على السؤال والجواب، طُبِع مرارا، وقد أعيد طبعه أيضا تحت عنوان«الإرشاد إلى معرفة الأحكام».

٤ـ «الـدُّرَّة المختصرة في محاسن الإسـلام»، طُبع في مطبعة أنصار السُنَّة عام ١٣٦٦هـ.

٥ـ «الخُطَب العصرية القيِّمة»، لما آل إليه أمر الخطابة في بلده اجتهد أن يخطب في كل عيد وجمعة بما يناسب الوقت في المواضيع المهمة التي يحتاج الناس إليها، ثم جمعها وطبعها مع «الدرَّة المختصرة» في مطبعة أنصار السنة على نفقته ووزعها مجانـًا.

٦ـ «القواعد الحسان لتفسير القرآن» مطبوع.

٧ـ «تنزيه الدين وحملته ورجاله، مما افتراه القصيمي في أغلاله»، طبع في مطبعة دار إحياء الكتب العربية على نفقة وجيه الحجاز «الشيخ محمد افندي نصيف» عام ١٣٦٦هـ.

٨ـ «الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين» مطبوع.

٩ـ «توضيح الكافية الشافية» وهو كالشرح لنونية الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ، مطبوع.

١٠ـ «وجوب التعاون بين المسلمين، وموضوع الجهاد الديني»، مطبوع.

١١ـ «القول السديد في مقاصد التوحيد» طبع.

١٢ـ «مختصر في أصول الفقه» لم يطبع.

١٣ـ «تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن» طبع.

«الرياض الناضرة» طبع.

وله فوائد منثورة وفتاوى كثيرة في أسئلة شتى ترد إليه من بلده وغيرها ويجيب عليها، وله تعليقات شتى على كثير مما يمر عليه من الكتب.

وكانت الكتابة سهلة يسيرة عليه جداً، حتى أنه كتب من الفتاوى وغيرها شيئًا كثيراً.

غايته من التصنيف:

وكان غاية قصده من التصنيف هو نشر العلم والدعوة إلى الحق، ولهذا يؤلف ويكتب ويطبع ما يقدر عليه من مؤلفاته، لا ينال منها عرضـًا زائلاً، أو يستفيد منها عرض الدنيا، **بل يوزِّعها مجانـًا ليعم النَّفع بها**، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً، ووفقنا الله إلى ما فيه رضاه.

وفاته:

وبعد عمر مبارك دام قرابة ٦٩ عامـًا في خدمة العلم انتقل إلى جوار ربِّه فجر يوم الخميس الموافق ٢٢ جمادى الآخرة عام ١٣٧٦هـ في مدينة عنيزة من بلاد القصيم رَحِمَهُ اللَّهُ رحمة واسعة[١].

---

[١] استفدت هذه الترجمة من مقدمة «المواهب الربانية من الآيات القرآنية» للشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ، وانظر ترجمة حافلة لشيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله في كتابه: «الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وجهوده في توضيح العقيدة» (ص٢١).

﴿لَّأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة].

■ قال الإمام السعدي رحمه الله:

«أخبر تعالى أَنَّ في هذه المخلوقات العظيمة، آيات أي: أدلة على وحدانية الباري وإلهيته، وعظيم سلطانه ورحمته وسائر صفاته، ولكنها ﴿لَّأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ أي: لمن لهم عقول يعملونها فيما خلقت له، فعلى حسب ما مَنَّ الله على عبده مِنَ العقل، ينتفع بالآيات ويعرفها بعقله وفكره وتدبُّره، ففي ﴿خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في ارتفاعها واتساعها، وإحكامها، وإتقانها، وما جعل الله فيها من الشمس والقمر، والنجوم، وتنظيمها لمصالح العباد.

وفي خلق ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ مهادا للخلق، يُمْكِنُهُمْ القَرَار عليها والانتفاع بما عليها، والاعتبار، ما يدل ذلك على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير، وبيان قدرته العظيمة التي بها خَلَقَها، وحكمته التي بها أتقنها، وأحسنها ونظمها، وعلمه ورحمته التي بها أودع ما أودع، من منافع الخلق ومصالحهم، وضروراتهم وحاجاتهم، وفي ذلك أبلغ الدليل على كماله، واستحقاقه أن يُفْرَد بالعبادة، لانفراده بالخلق والتدبير، والقيام بشئون عباده ﴿وَ﴾ في ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وهو تعاقبهما على الدوام، إذا ذهب أحدهما، خلفه الآخر، وفي اختلافهما في الحَرِّ، والبَرْد، والتَوَسُّط، وفي الطول، والقصر، والتوسط، وما ينشأ عن ذلك من الفصول، التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم، وجميع ما على وجه الأرض، مِنْ أشجار ونوابت، كل ذلك بانتظام وتدبيروتسخير، تنبهر له العقول، وتعجز عن إدراكه من الرجال الفحول، ما يدل ذلك على قدرة مصرفها، وعلمه وحكمته، ورحمته الواسعة، ولطفه الشامل، وتصريفه وتدبيره، الذي تَفَرَّد به، وعظمته، وعظمة ملكه وسلطانه، مما يوجب أنْ يُؤْلَه ويُعْبَد، ويُفْرد بالمحبة والتعظيم، والخوف والرجاء، وبذل الجهد في محابه

ومراضيه» [تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ المَنَّانِ (ص ٧٨)][١].

[١] قال الإمام ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «سبحان من سبَّحت المخلوقات بحمده، فملأ الأكوان تحميده، وأفصحت الكائنات بالشهادة بوحدانيته، فوضح توحيده يسبحه النبات جمعه وفريده، والشجر عتيقه وجديده، ويمجده رهبان الطيور في صوامع الأشجار فيطرب السامع تمجيده، كلما درس الهزار درس شكره فالبلبل بالحمد معيده، وكلما أقام خطيب الحمام النوح على الدوح هيج المستهام نوحه وتغريده: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾.

عجبا للمتقلب بين مشاهدة حكمه وتناول نعمه، ثم لا يشكر نعمه ولا يبصر حكمه، وأعجب من ذلك أن يعصي المنعم بنعمه...

ومن وجوه الاعتبار في النظر إلى الأرض التي أحياها الله بعد موتها في فصل الربيع بما ساق إليها من قطر السماء، أنه يرجى من كرمه أن يحي القلوب الميتة بالذنوب وطول الغفلة، بسماع الذكر النازل من السماء، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ففيه إشارة إلى أن من قدر على إحياء الأرض بعد موتها بوابل القطر، فهو قادر على إحياء القلوب الميتة القاسية بالذكر، عسى لمحة من لمحات عطفه، ونفحة من نفحات لطفه، وقد صلح من القلوب كل ما فسد:

عسى فرج يأتي به الله إنه ... له كل يوم في خليقته أمر

إذا اشتد عسر فارج يسرا فإنه ... قضى الله إن العسر يتبعه يسر

عسى من أحيا الأرض الميتة بالقطر أن يحي القلوب الميتة بالذكر، عسى نفحة من نفحات رحمته تهب، فمن أصابته سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا» «لطائف المعارق» (ص ٤٢٩).

عظمة الله ﷻ

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة].

■ قال الإمام السعدي رحمه الله:

«هذه الآية الكريمة أعظم آيات القرآن وأفضلها وأجلها، وذلك لما اشتملت عليه من الأمور العظيمة والصفات الكريمة.. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وهذا يدل على كمال عظمته وسعة سلطانه، إذا كان هذه حالة الكرسي أنه يسع السماوات والأرض على عظمتهما وعظمة من فيهما، والكرسي ليس أكبر مخلوقات الله تعالى، بل هنا ما هو أعظم منه وهو العرش، وما لا يعلمه إلا هو، وفي عظمة هذه المخلوقات تحير الأفكار

وتكل الأبصار، وتقلقل الجبال وتكع عنها فحول الرجال، فكيف بعظمة خالقها ومبدعها، والذي أودع فيها من الحكم والأسرار ما أودع، والذي قد أمسك السماوات والأرض أن تزولا من غير تعب ولا نصب»[تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلاَمِ المَنَّانِ (ص١١٠)][١].

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

[١] قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَدْ عُلِمَ أَنَّ تَفَاضُلَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ مِنْ كَلَامِ اللهِ لَيْسَ بِاعْتِبَارِ نِسْبَتِهِ إلَى الْمُتَكَلِّمِ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَاحِدٌ وَلَكِنْ بِاعْتِبَارِ مَعَانِيهِ الَّتِي يَتَكَلَّمُ بِهَا وَبِاعْتِبَارِ أَلْفَاظِهِ الْمُبَيِّنَةِ لِمَعَانِيهِ... وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ وَاحِدَةٌ تَضَمَّنَتْ مَا تَضَمَّنَتْهُ آيَةُ الْكُرْسِيِّ وَإِنَّمَا ذَكَرَ اللهُ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْحَدِيدِ وَآخِرِ سُورَةِ الْحَشْرِ عِدَّةَ آيَاتٍ لَا آيَةً وَاحِدَةً» «مجموع الفتاوى» (١٧/ ١٢٩).

وعيد شديد

قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة].

قال الإمام السعدي رحمه الله:

«وهذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ما تنخلع له القلوب، يقول تعالى: هل ينتظر السَّاعُون في الفساد في الأرض، المُتَّبِعُون لخُطُوَات الشَّيطان، النَّابِذُون لأمر الله، إلاَّ يوم الجزاء بالأعمال، الذي قد حشي من الأهوال والشدائد والفظائع، ما يُقَلْقِل قلوب الظالمين، ويحَقُّ به الجزاء السيئ على المفسدين.

وذلك أن الله تعالى يطوي السماوات والأرض، وتنثر الكواكب، وتُكَوَّرُ الشمس والقمر، وتنزل الملائكة الكرام، فتحيط بالخلائق، وينزل الباري تبارك تعالى: ﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ ليفصل بين عباده بالقضاء العدل.

فَتُوضَع الموازين، وتُنْشَر الدواوين، وتبيضُّ وجوه أهل السعادة وتسوَدُّ وجوه

أهل الشقاوة، ويتميَّز أهل الخير من أهل الشر، وكل يجازى بعمله، فهنالك يَعَضُّ الظالم على يديه إذا علم حقيقة ما هو عليه» [تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلاَمِ المَنَّانِ (ص٩٤)][1].

[١] قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ الآية، ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة إتيان الله جل وعلا وملائكته يوم القيامة، وذكر ذلك في موضع آخر، وزاد فيه أن الملائكة يجيئون صفوفًا وهو قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾، وذكره في موضع آخر، وزاد فيه أنه جل وعلا يأتي في ظلل من الغمام وهو قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، ومثل هذا من صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه يمر كما جاء ويؤمن بها، ويعتقد أنه حق، وأنه لا يشبه شيئًا من صفات المخلوقين، فسبحان من أحاط بكل شيء علمًا: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾» «أضواء البيان» (١/ ٥٤٩).

الموت

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران].

قال الإمام السعدي رحمه الله:

«هذه الآية الكريمة فيها التزهيد في الدنيا بفنائها وعدم بقائها، وأنها متاع الغرور، تفتن بزخرفها، وتخدع بغرورها، وتغرُّ بمحاسنها، ثم هي منتقلة، ومنتقل عنها إلى دار القرار، التي تُوَفَّى فيها النُّفُوس ما عملت في هذه الدار، من خير وشر.

﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾ أي: أُخرج، ﴿عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أي: حَصَلَ له الفوز العظيم من العذاب الأليم، والوصول إلى جَنَّات النَّعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ومفهوم الآية، أن من لم يُزَحْزَح عَنِ النَّار ويُدْخل الجنة، فإنه لم يَفُز، بل قد

شَقِي الشَّقَاء الأبدي، وابتلي بالعذاب السرمدي» [تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلاَمِ المَنَّانِ (ص١٥٩)][١].

[١] قال الإمام السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهذه اللذات المنوَّعة فيها (أي: الدنيا)، والمناظر البهيجة، جعلها الله ابتلاء منه وامتحانا، واستخلف فيها العباد لينظر كيف يعملون.

فمن تناولها مِنْ حِلِّها، ووضعها في حَقِّها، واستعان بها على ما خلق له من القيام بعبودية الله، كانت زادا له وراحلة إلى دار أشرف منها وأبقى، وتمَّت له السعادة الدنيوية والأخروية ومن جعلها أكبر همه، وغاية علمه ومراده، لم يؤت منها إلا ما كتب له، وكان مآله بعد ذلك إلى الشقاء، ولم يهنأ بلذاتها ولا شهواتها إلاَّ مُدَّة قليلة، فكانت لذاته قليلة، وأحزانه طويلة. وكل نوع من لذاتها فيه هذه الفتنة والاختبار، ولكن أبلغ ما يكون وأشد فتنة النساء، فإن فتنتهن عظيمة، والوقوع فيها خطير وضررها كبير، فإنهن مصائد الشيطان وحبائله، كم صاد بهن من معافى فأصبح أسير شهوته، رهين ذنبه، قد عز عليه الخلاص، والذنب ذنبه، فإنه الذي لم يحترز من هذه البلية، وإلا فلو تحرَّز منها، ولم يدخل مداخل التهم، ولا تعرض للبلاء، واستعان باعتصامه بالمولى، لنجا من هذه الفتنة، وخلص من هذه المحنة» «بهجة قلوب الأبرار» (ص ٢١٢).

وقال الإمام ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «يا من طلع فجر شيبه بعد بلوغ الأربعين، يا من مضى عليه بعد ذلك ليالي عشر سنين حتى بلغ الخمسين، يا من هو في معترك المنايا ما بين الستين و السبعين، ما تنتظر بعد هذا الخبر إلا أن يأتيك اليقين، يا من ذنوبه بعدد الشفع و الوتر أما تستحي من الكرام الكاتبين ؟ أم أنت ممن يُكَذِّبُ بيوم الدين؟ يا من ظُلْمَة قلبه كالليل إذا يسري أما آن لقلبك أن يستنير أو يلين» «لطائف المعارف» (ص ٣٧١).

تَسْلِيَةُ أَهْلِ الفَقْرِ

قال الله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران].

■ قال الإمام السعدي رحمه الله:

«وهذه الآية المقصود منها التسلية عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا، وتنعمهم فيها، وتقلبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات، وأنواع العز، والغلبة في بعض الأوقات، فإن هذا كله ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون به قليلا ويعذبون عليه طويلا هذه أعلى حالة تكون للكافر، وقد رأيتَ ما تؤول إليه.

وأما المتقون لربهم، المؤمنون به فمع ما يحصل لهم من عِزِّ الدنيا ونعيمها ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

فلو قدر أنهم في دار الدنيا، قد حصل لهم كل بؤس وشدة، وعناء ومشقة، لكان

هذا بالنسبة إلى النعيم المقيم، والعيش السليم، والسرور والحبور، والبهجة نزرا يسيرا، ومنحة في صورة محنة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾ وهم الذين برت قلوبهم، فبرت أقوالهم وأفعالهم، فأثابهم البر الرحيم من بره أجرا عظيما، وعطاء جسيما، وفوزا دائما» [تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلاَمِ المَنَّانِ» (ص ١٦٢)][1].

[١] «ذكروا أن الحافظ ابن حجر لما كان قاضي القضاة مر يوما بالسوق في موكب عظيم، وهيئة جميلة، فهجم عليه يهودي يبيع الزيت الحار وأثوابه ملطخة بالزيت، وهو في غاية الرثاثة والشناعة، فقبض على لجام بغلته وقال: يا شيخ الإسلام تزعم أن نبيكم قال «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**» فأي سجن أنت فيه؟! وأي جنة أنا فيها؟! فقال: أنا بالنسبة لما أعد الله لي في الآخرة من النعيم كأني الآن في السجن، وأنت بالنسبة لما أعد لك في الآخرة من العذاب الأليم كأنك في جنة، فأسلم اليهودي» «فيض القدير» (٣/ ٧٣٠).

إنَّه الله ﷻ

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [سُورَةُ المَائِدَة].

■ قال الإمام السعدي رحمه الله:

«فيداه ـ سبحانه ـ سحَّاء اللَّيْل والنَّهار، وخيره في جميع الأوقات مدرارا، يُفَرِّج كُرَبًا، وَيُزِيل غَمًّا، ويُغني فقيرا أو يفكُّ أسيرا، و يجبر كسيرا، و يجيب سائلا، ويعطي فقيرا عائلا، و يجيب المضطرين ويستجيب للسائلين وينعم على من لم يسأله ويعافي من طلب العافية ولا يحرم من خيره عاصيا، بل خيره يرتع فيه البر الفاجر، و يجود على أوليائه بالتوفيق لصالح الأعمال ثم يحمدهم عليها، ويضيفها إليهم وهي من جوده ويثيبهم عليها من الثواب العاجل والآجل ما لا يدركه الوصف ولا يخطر على العبد، ويلطف بهم في جميع أمورهم، ويوصل إليهم من الإحسان يدفع عنهم من النقم ما لا يشعرون بكثير منه، فسبحان من كل النعم التي بالعباد

فمنه، وإليه يجأرون في دفع المكاره، وتبارك من لا يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وتعالى من يخلو العباد من كرمه طرفة عين، بل لا وجود لهم ولا بقاء إلا بجوده.

وقبّح الله من استغنى بجهله عن ربه، ونسبه إلى ما لا يليق بجلاله بل لو عامل الله اليهود القائلين تلك المقالة، ونحوهم ممن حاله كحالهم ببعض قولهم لهلكوا، وشقوا في دنياهم، ولكنهم يقولون تلك الأقوال، وهو تعالى يحلم عنهم ويصفح، ويمهلهم ولا يهملهم» [تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلاَمِ المَنَّانِ ص٢٣٨][١].

---

[١] «وأما خصائصه المعنوية (أي لفظ الجلالة: الله) فقد قال فيها أعلم الخلق به ﷺ «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» وكيف تُحْصى خصائص اسم مسماه كل كمال على الإطلاق وكل مدح وكل حمد وكل ثناء وكل مجد وكل جلال وكل إكرام وكل عز وكل جمال وكل خير وإحسان وجود وبر وفضل فله ومنه، فما ذُكِر هذا الاسم في قليل إلا كثَّره، ولا عند خوف إلاَّ أزاله، ولا عند كرب إلا كشفه، ولا عند همّ وغمّ إلا فرَّجه، ولا عند ضيق إلا وسَّعه، ولا تعلَّق به ضعيف إلا أفاده القوة، ولا ذليل إلا أناله العزّ ولا فقير إلا أصاره غنياً، ولا مستوحش إلا آنسه، ولا مغلوب إلا أيَّده ونصره، ولا مضطر إلا كشف ضرَّه، ولا شريد إلا آواه، فهو الاسم الذي تُكْشَف به الكُرُبَات، وتُسْتَنْزَل به البركات والدعوات، وتُقَال به العثرات، وتستدفع به السيئات، وتُسْتَجْلب به الحسنات، وهو الاسم الذي به قامت السموات والأرض، وبه أُنزلت الكتب وبه أُرسلت الرسل، وبه شُرِّعت الشَّرائع، وبه قامت الحدود، وبه شُرِع الجهاد، وبه انقسمت الخليقة الى السعداء والأشقياء، وبه حقَّت الحاقة ووقعت الواقعة، وبه وُضِعَت الموازين القسط، ونُصِب الصراط، وقام سوق الجنة والنار، وبه عُبِد ربُّ العالمين وحُمِد، وبحقه بعثت الرسل، وعنه السؤال في القبر ويوم البعث والنشور، وبه الخصام واليه المحاكمة وفيه الموالاة والمعاداة..» من كلام الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر عنه في [تيسير العزيز الحميد (ص١٤)].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأنعام].

■ قال الإمام السعدي رحمه الله:

«يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: جميع الثقلين، من الإنس والجن، مَنْ ضَلَّ مِنْهم، ومَنْ أَضَلَّ غيره، فيقول مُوَبِّخًا للجنّ الذين أضلوا الإنس، وزيَّنُوا لهم الشرّ، وأزُّوهم إلى المعاصي: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ أي: من إضلالهم، وصَدِّهم عَنْ سبيل الله، فكيف أقدمتم على محارمي، وتجَرَّأْتُم على معاندة رسلي؟ وقُمْتُم محاربين لله، ساعين في صَدّ عِبَاد الله عن سبيله إلى سبيل الجحيم؟

فاليوم حقَّت عليكم لعنتي، وَوَجَبَتْ لكم نقمتي وسنزيدكم مِنَ العَذَاب بحسب كفركم، وإضلالكم لغيركم، وليس لكم عذر به تعتذرون، ولا ملجأ إليه تلجأون، ولا شافع يشفع ولا دعاء يُسْمع، فلا تسأل حينئذ عَمَّا يحل بهم من النَّكَال، والخِزْي

والوَبَال، ولهذا لم يَذْكر الله لهم اعتذارا، وأمَّا أولياؤهم مِنَ الإنس، فأبدوا عذرا غير مقبول فقالوا: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي: تمتع كل من الجِنّي والإنسي بصاحبه، وانتفع به.

فالجنّي يستمتع بطاعة الإنسي له وعبادته، وتعظيمه، واستعاذته به. والإنسي يستمتع بنيل أغراضه، وبلوغه بسبب خدمة الجِنّي له بعض شهواته»[تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ المَنَّانِ (ص ٢٧٣)][١].

---

[١] استدل الكثير من العلماء بهذه الآية على تحريم الاستعانة بالجن، قال الإمام ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَا يَجُوزُ الِاسْتِعَاذَةُ بِالْجِنِّ، فَقَدْ ذَمَّ اللهُ الْكَافِرِينَ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦]. قَالُوا: كَانَ الْإِنْسِيُّ إِذَا نَزَلَ بِالْوَادِي يَقُولُ: أَعُوذُ بِعَظِيمِ هَذَا الْوَادِي مِنْ سُفَهَائِهِ، فَيَبِيتُ فِي أَمْنٍ وَجِوَارٍ حَتَّى يُصْبِحَ، ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ يَعْنِي الْإِنْسُ لِلْجِنِّ، بِاسْتِعَاذَتِهِمْ بِهِمْ، رَهَقًا، أَيْ إِثْمًا وَطُغْيَانًا وَجَرَاءَةً وَشَرًّا، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا: قَدْ سُدْنَا الْجِنَّ، وَالْإِنْسَ! فَالْجِنُّ تَعَاظَمُ فِي أَنْفُسِهَا وَتَزْدَادُ كُفْرًا إِذَا عَامَلَتْهَا الْإِنْسُ بِهَذِهِ الْمُعَامَلَةِ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١﴾ [سبأ]، فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَدْعُونَ الْمَلَائِكَةَ وَيُخَاطِبُونَهُمْ بِهَذِهِ الْعَزَائِمِ، وَأَنَّهَا تَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ: ضَالُّونَ، وَإِنَّمَا تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الشَّيَاطِينُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝١٢٨﴾ [الأنعام]، فَاسْتِمْتَاعُ الْإِنْسِيِّ بِالْجِنِّيِّ: فِي قَضَاءِ حَوَائِجِهِ، وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ، وَإِخْبَارِهِ بِشَيْءٍ مِنَ الْمُغَيَّبَاتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَاسْتِمْتَاعُ الْجِنِّ بِالْإِنْسِ: تَعْظِيمُهُ إِيَّاهُ، وَاسْتِعَانَتُهُ بِهِ، وَاسْتِغَاثَتُهُ وَخُضُوعُهُ لَهُ». وانظر: «فتاوى اللجنة الدائمة» (١/ ٩٢) / المجموعة الثانية»، و«شرح العقيدة الطحاوية» (ص٤٣٩).

رحلة إلى الدار الآخرة

قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأنعام].

قال الإمام السعدي رحمه الله:

«فإذا عرفتم بأنكم لا بد أن تنتقلوا من هذه الدار كما انتقل غيركم، وترحلون منها وتخلونها لمن بعدكم، كما رحل عنها من قبلكم وخلوها لكم، فلم تخذتموها قرارا ؟ وتوطنتم بها ونسيتم أنها درا ممر لا دار مقر وأن أمامكم دارا.

هي الدار التي جمعت كل نعيم وسلمت من كل آفة ونقص؟ وهي الدار التي يسعى إليها الأوَّلون والآخرون، ويرحل نحوها السابقون واللاّحقون، التي إذا وصولها، فثم الخلود الدائم، والإقامة اللازمة، والغاية التي لا غاية وراءها، والمطلوب التي ينتهي إليه كل مطلوب، والمرغوب الذي يضمحل دونه كل مرغوب، هنالك والله ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وينافس فيه المتنافسون، من لذة الأرواح وكثرة الأفراح، ونعيم الأبدان والقلوب، والقرب من علام الغيوب،

فلله همة تعلقت بتلك الكرامات، وإرادة سمت إلى أعلى الدرجات، وما أبخس حظ من رضي بالدون، وأدنى همة من اختار صفقة المغبون»[تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلاَمِ المَنَّانِ (ص ٢٧٤)][١].

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

[١] يُذكر عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّه «قيل له: صف لنا الدنيا، فَقَالَ أَوَّلُهَا عَنَاءٌ، وَآخِرُهَا فَنَاءٌ، حَلاَلُهَا حِسَابٌ، وَحَرَامُهَا عَذَابٌ مَنْ صَحَّ فِيهَا زَمِنَ، وَمَنْ مَرِضَ فِيهَا نَدِمَ، وَمَنْ اسْتَغْنَى فِيهَا فُتِنَ وَمَنْ افْتَقَرَ فِيهَا حَزَنَ مَنْ سَاعَاهَا فَاتَتْهُ، وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا أَتَتْهُ، وَمَنْ نَظَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ، وَمَنْ تَهَاوَنَ بِهَا بَصُرَتْهُ.

وَعَنْهُ: الدُّنْيَا دَارُ مَمَرٍّ، لَا دَارُ مَقَرٍّ النَّاسُ فِيهَا رَجُلَانِ رَجُلٌ بَاعَ نَفْسَهُ فَأَوْبَقَهَا وَرَجُلٌ بَاعَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَهَا» «الآداب الشرعية» (١/ ٣٣٤).

أعظم صفقة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة].

■ قال الإمام السعدي رحمه الله:

«يخبر تعالى خبرا صِدْقًا، ويَعِد وعدًا حَقًّا بمبايعة عظيمة، ومعاوضة جسيمة، وهو أنه ﴿ٱشْتَرَىٰ﴾ بنفسه الكريمة ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ فهي المثمن والسلعة المبيعة.

﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ التي فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين من أنواع اللذات والأفراح، والمسرات، والحور الحسان، والمنازل الأنيقات.

وصفة العقد والمبايعة، بأن يبذلوا للهّ نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه، لإعلاء كلمته وإظهار دينه فـ ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ فهذا العقد والمبايعة، قد صدرت من اللهّ مؤكدة بأنواع التأكيدات.

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ التي هي أشرف الكتب التي طرقت العالم، وأعلاها، وأكملها، وجاء بها أكمل الرسل أولو العزم، وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟﴾ أيُّها المؤمنون القائمون بما وعدكم اللهّ، ﴿بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ أي: لتفرحوا بذلك، وليُبَشِّر بعضكم بعضا، ويحُثُّ بعضكم بعضا.

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز أكبر منه، ولا أجل، لأنه يتضمن السعادة الأبدية، والنعيم المقيم، والرضا من اللهّ الذي هو أكبر من نعيم الجنات، وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة، فانظر إلى المشتري من هو؟ وهو اللهّ ﷻ، وإلى العوض، وهو أكبر الأعواض وأجلها، جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها، وهو النفس، والمال، الذي هو أحب الأشياء للإنسان.

وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع، وهو أشرف الرسل، وبأي كتاب

رقم، وهي كتب اللهّ الكبار المنزلة على أفضل الخلق»[تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلاَمِ المَنَّانِ (ص٣٥٢)][١].

[١] قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنما يظهر الغبن الفاحش في هذا البيع يوم القيامة، وإنما يتبين سفه بائعه يوم الحسرة والندامة، إذا حشر المتقون إلى الرحمن وفدا وسيق المجرمون إلى جهنم وردا، ونادى المنادي على رؤوس الأشهاد ليعلمن أهل الموقف من أولى بالكرم من بين العباد، فلو تَوَهَّم المتخلف عن هذه الرفقة ما أعد الله لهم من الإكرام، وادخر لهم من الفضل والإنعام، وما أخفى لهم من قرة أعين لم يقع على مثلها بصر ولا سمعته أذن ولا خطر على قلب بشر، لعلم أي بضاعة أضاع، وأنه لا خير له في حياته وهو معدود من سقط المتاع، وعلم أن القوم قد توسطوا ملكا كبيرا لا تعترية الآفات ولا يلحقه الزوال، وفازوا بالنعيم المقيم في جوار الكبير المتعال»«حادي الأرواح» (ص ٢٨).

الدنيا

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨﴾ [يُونُسَ].

■ قال الإمام السعدي رحمه الله:

«﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ أي: ركنوا إليها وجعلوها غاية مرادهم، ونهاية قصدهم، فسعوا لها وأكبُّوا على لذاتها وشهواتها، بأي طريق حَصَلَتْ حَصَّلُوها، ومن أيِّ وجه لَاحَتْ ابْتَدَرُوها، قد صرفوا إراداتهم ونياتهم وأفكارهم وأعمالهم إليها، فكأنهم خلقوا للبقاء فيها، وكأنها ليست دار ممر يَتَزَوَّدُ منها المسافرون إلى الدار الباقية التي إليها يرحل الأولون والآخرون وإلى نعيمها ولذاتها شمر المُوَفَّقُون» [تَيْسِيرُ

الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ المَنَّانِ (ص٣٥٨)][١].

---

[١] قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولما علم المُوَفَّقُون ما خلقوا له، وما أريد بإيجادهم رفعوا رؤوسهم، فإذا علم الجنة قد رفع لهم، فشمروا إليه،وإذا صراطها المستقيم قد وضح لهم، فاستقاموا عليه، ورأوا من أعظم الغبن بيع ما لا عين رأت،ولا أذن سمعت،ولا خطر على قلب بشر، في أبد لا يزول، ولا ينفد بصبابة عيش، إنما هو كأضغاث أحلام، أو كطيف زار في المنام، مشوب بالنَّغَص، ممزوج بالغُصَص، إن أضحك قليلا أبكى كثيرا، وإنْ سَرَّ يَوْمًا أَحْزَنَ شهورا، آلامه تزيد على لَذَّاته، وأحزانه أضعاف مسرَّاته، أوله مخاوف وآخره متالف، فيا عجبا من سفيه في صورة حليم، ومعتوه في مسلاخ عاقل، آثر الحظ الفاني الخسيس على الحظ الباقي النفيس، وباع جنة عرضها السموات والأرض بسجن ضيق بين أرباب العاهات والبليات، ومساكن طيبة في جنات عدن تجري من تحتها الأنهار بأعطان ضيقة آخرها الخراب والبوار، وأبكارا أعرابا أترابا كأنهن الياقوت والمرجان بقذرات دنسات سيئات الأخلاق مسالخات أو متخذات أخذان، وحورا مقصورات في الخيام بخبيثات مسيبات بين الأنام، وأنهارا من خمر لذة للشاربين بشراب نجس مذهب للعقل مفسد للدنيا والدين، ولذة النظر إلى وجه العزيز الرحيم بالتمتع برؤية الوجه القبيح الذميم، وسماع الخطاب من الرحمن بسماع المعازف والغناء والألحان، والجلوس على منابر اللؤلؤ والياقوت والزبرجد يوم المزيد بالجلوس في مجالس الفسوق مع كل شيطان مريد، ونداء المنادي يا أهل الجنة إن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا وتحيوا فلا تموتوا وتقيموا فلا تظعنوا وتشبوا فلا تهرموا بغناء المغنين..»«حادي الأرواح» (ص ٢٦).

تسلية للنبي ﷺ

قال الله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [سُورَةُ الْكَهْفِ].

قال الإمام السعدي رحمه الله:

«ولما كان النبي ﷺ حريصا على هداية الخلق، ساعيا في ذلك أعظم السعي، فكان ﷺ يفرح ويسر بهداية المهتدين، ويحزن ويأسف على المكذبين الضالين، شفقة منه ﷺ عليهم، ورحمة بهم، أرشده الله أن لا يشغل نفسه بالأسف على هؤلاء، الذين لا يؤمنون بهذا القرآن»[تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ المَنَّانِ (ص ٤٧٠)][١].

---

[١] قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله: «هذه النقطة بالذات تجد بعض الغيورين على دينهم إذا رأوا من الناس ما يكرهون تجدهم يؤثر ذلك عليهم، حتى على عبادتهم الخاصة ولكن الذي ينبغي أن يتلقوا ذلك بحزم وقوة ونشاط فيقوموا بما أوجب الله عليهم من الدعوة إلى الله على بصيرة، ثم إنه لا يضرهم من خالفهم» «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٢٩).

إدريس عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيّٗا ٥٧﴾ [مريم].

قال الإمام السعدي رحمه الله:

«اذكر في الكتب على وجه التَّعْظيم والإجلال، والوصف بصفات الكمال.

﴿إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا﴾ جمع الله له بين الصِّدِّيقيَّة، الجامعة للتَّصْدِيق التام، والعلم الكامل، واليقين الثابت، والعمل الصالح، وبين اصطفائه لوحيه، واختياره لرسالته.

﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيّٗا﴾ أي: رفع الله ذِكْرَهُ في العالمين، ومنزلته بين المُقَرَّبين، فكان

عالي الذكر، عالي المنزلة» [تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلاَمِ المَنَّانِ (ص ٤٩٦)][١].

[١] سئل العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: من أَوَّلُ الرسل؟

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «أَوَّلُ الرسل عليهم الصلاة والسلام، نوح عليه الصلاة والسلام، وآخرهم محمد ﷺ، وأمَّا قبل نوح فلم يُبْعث رسول، **وبهذا نعلم خطأ المؤرخين الذين قالوا: إنَّ إدريس، عليه الصلاة والسلام، كان قبل نوح**؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: في كتابه: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [**النساء**:١٦٣] وفي الحديث الصحيح في قصة الشفاعة «أنَّ الناس يأتون إلى نوح فيقولون له: أنت أوَّل رسول أرسله الله إلى أهل الأرض»، فلا رسول قبل نوح، ولا رسول بعد محمد، ﷺ، لقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠]» [«مجموع الفتاوى» (١/ ٣١٥)].

أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه].

قال الإمام السعدي رحمه الله:

«يخبر تعالى أن من أتاه، وقدم عليه مجرما بأي صفه الجرم من كل وجه... وذلك يستلزم الكفر واستمر على ذلك حتى مات، فإن له نار جهنم، الشديد نكالها، العظيمة أغلالها، البعيد قعرها، الأليم حَرُّها وقَرُّها، التي فيها من العقاب ما يذيب الأكباد والقلب، ومن شدة ذلك أن المعذب فيها لا يموت ولا يحيا، لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة يتلذذ بها، وإنما حياته محشورة بعذاب القلب والروح والبدن الذي لا يُقَدِّرُ قدره ولا يَفْتُر عنه ساعة، يستغيث فلا يغاث، ويدعو فلا يستجاب له.

نعم إذا استغاث يغاث ماء كالمهل يشوي الوجوه، وإذا دعا أجيب بـ:﴿قَالَ اخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾.

ومن يأت ربه مؤمنا به مصدقا لرسله، مُتَّبِعًا لكتبه﴿قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ الواجبة والمستحبة ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ أي: المنازل العاليات، في الغرف المزخرفات، واللذات المتواصلات، والأنهار السَّارحات، والخلود الدائم، والسرور العظيم، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»

[تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلاَمِ المَنَّانِ (ص ٥٠٩)][١].

[١] «تأمل فى حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا، فبينما هم فى كربها وأهوالها وقوفا ينتظرون حقيقة أنبائها، وتشفيع شفعائها، إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب وأظلت عليهم نار ذات لهب، وسمعوا لها زفيرا وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب،وجثت الأمم على الركب،حتى أشفق البرآء من سوء المنقلب، وخرج المنادي من الزبانية قائلا: أين فلان بن فلان المسوف نفسه فى الدنيا بطول الأمل، المضيع عمره فى سوء العمل، فيبادرونه بمقامع حديد ويستقبلونه بعظائم التهديد، ويسوقونه إلى العذاب الشَّديد، وينكسونه فى قعر الجحيم، ويقولون له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان]، فَأُسْكِنُوا دارا ضيقة الأرجاء مظلمة المسالك مبهمة المهالك، يخلد فيها الأسير ويوقد فيها السَّعير، شرابهم فيها الحميم ومستقرهم الجحيم، الزبانية تقمعهم والهاوية تجمعهم، أمانيهم فيها الهلاك وما لهم منها فكاك، قد شدت أقدامهم إلى النواصي واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي، ينادون من أكنافها ويصيحون في نواحيها وأطرافها: يا مالك قد حق علينا الوعيد، يا مالك قد أثقلنا الحديد، يا مالك قد نضجت منا الجلود يا مالك أخرجنا منها فإنا لا نعود، فتقول الزبانية: هيهات لات حين أمان ولا خروج لكم من دار الهوان، فاخسئوا فيها ولا تكلمون، ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتم عنه تعودون، فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرطوا فى جنب الله يتأسفون، ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف، بل يكبون على وجوههم مغلولين النار من فوقهم والنار من تحتهم والنار عن أيمانهم والنار عن شمائلهم، فهم غرقى في النار طعامهم نار وشرابهم نار ولباسهم نار ومهادهم نار، فهم بين مقطعات النيران وسرابيل القطران، وضرب المقامع وثقل السلاسل فهم يتجلجلون فى مضايقها،ويتحطمون فى دركاتها، ويضطربون بين غواشيها، تغلي بهم النار كغلي القدور، ويهتفون بالويل والعويل ومهما دعوا بالثبور صب ﴿مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾﴾ تهشم بها جباههم فيتفجر الصديد من أفواههم، وننقطع من العطش أكبادهم، وتسيل على الخدود أحداقهم، ويسقط من الوجنات لحومها ويتمعط من الأطراف شعورها بل جلودها، وكلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها..» «موعظة المؤمنين» (ص٣٨٤).

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنبياء].

قال الإمام السعدي رحمه الله:

يخبر تعالى أنه ما خلق السماوات والأرض عبثا، ولا لعبا من غير فائدة، بل خلقها بالحقِّ وللحقِّ، ليستدلَّ بها العِبَادُ على أنَّه الخالق العظيم، المُدَبِّرُ الحكيم، الرَّحمن الرحيم، الذي له الكمال كلّه، والحمد كلّه، والعزة كلّها، الصَّادق في قيله، الصَّادقة رسله، فيماتخبر عنه، وأنَّ القادر على خلقهما مع سعتهما وعظمهما، قادر على إعادة الأجساد بعد موتها، ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته»

[تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ المَنَّانِ (ص٥٢٠)][١].

[١] قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما إلهه الحق فلا بد له منه في كل وقت وفي كل حال وأينما كان، فنفس الإيمان به ومحبته وعبادته وإجلاله وذكره هو غذاء الإنسان، وقوته وصلاحه وقوامه كما عليه أهل الإيمان، ودلت عليه السنة والقرآن، وشهدت به الفطرة والجَنَان، لا كما يقوله مَنْ قَلَّ نصيبه من التَّحقيق والعِرْفان، وبَخَسَ حَظَّه من الإحسان: إنَّ عبادته وذكره وشكره تكليف ومشقة لمجرد الابتلاء والامتحان، أو لأجل مجرد التعويض بالثواب المنفصل كالمعاوضة بالأثمان، أو لمجرد رياضة النفس وتهذيبها ليرتفع عن درجة البهيم من الحيوان، كما هي مقالات من بخس حظه من معرفة الرحمن، وقل نصيبه من ذوق حقائق الإيمان، وفرح بما عنده من زبد الأفكار وزبالة الأذهان، بل عبادته ومعرفته وتوحيده وشكره قُرَّةُ عَيْنِ الإنسان، وأفضل لذَّة للرُّوح والقلب والجَنَان، وأطيب نعيم ناله من كان أهلا لهذا الشان، والله المستعان وعليه التكلان» «إغاثة اللهفان» (١/ ٣١).

الظَّلَمَةُ

قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [سُورَةُ القَصَصِ].

قال الإمام السعدي رحمه الله:

«﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الذين صار الظلم لهم وصفا والعناد لهم نعتا، جاءهم الهدى فرفضوه، وعرض لهم الهوى فتبعوه، سدوا على أنفسهم أبواب الهداية وطرقها، وفتحوا عليهم أبواب الغواية وسبلها، فهم في غيهم وظلمهم يعمهون، وفي شقائهم وهلاكهم يترددون»[تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلاَمِ المَنَّانِ (ص٦١٨)][1].

---

[١] قال العلامة عبد العزيز بن باز رحمه الله: «فإذا سلم العبد من أنواع الظلم: ظلم الشرك، وظلم المعاصي، وظلم العباد في أنفسهم أو أموالهم أو أعراضهم، إذا سلم من هذه الأنواع الثلاثة حصل له الأمن الكامل، والاهتداء الكامل في الدنيا والآخرة» «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» (٢/ ٢٦٥).

الله ﷻ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١﴾ [فاطر].

قال الإمام السعدي رحمه الله:

«يخبر تعالى عن كمال قدرته وتمام رحمته، وسعة حلمه ومغفرته، وأنه تعالى يُمْسِكُ السَّماوات والأرض عن الزوال فإنهما لو زالتا ما أمسكهما أحد من الخلق ولعجزت قدرتهم وقوتهم عنهما.

لكنه تعالى قضى أن يكون كما وجدوا، ليحْصُل للخلق القرار، والنفع والاعتبار، وليعلموا من عظيم سلطانه قوته وقدرته، ما تمتلئ قلوبهم له إجلالا وتعظيما، و محبته وتكرما وليعلموا كمال حلمه ومغفرته، بإمهال المذنبين، وعدم معاجلته للعاصِين، مع أنه لو أمر السَّماء لحصبتهم، ولو أَذِنَ للأرض لابتلعتهم، ولكنْ وَسِعَتْهم مغفرته، وحلمه وكرمه ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ

فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَنَّانِ (ص ٦٩١)][١].

[١] وهذه الأمور مما تعين العبد على تعظيم التوحيد في قلبه، و كما قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالتَّوحيد ملجأ الطَّالبين، ومَفْزَعُ الهاربين، ونجاة المَكْرُوبين، وغِيَاث الملهوفين، وحقيقته: إفراد الرب سبحانه بالمحبَّة والإجلال والتعظيم والذل والخضوع» «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٣٥).

الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصَّافَّاتِ].

قال الإمام السعدي رحمه الله:

«﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي حصل لهم به كل خير، وكل ما تشتهي وتهوى النفوس، واندفع عنهم به كل محذور ومكروه، فهل فوز يُطْلب فوقه؟ أم هو غاية الغايات، ونهاية النِّهايات، حيث حلَّ عليهم رِضا ربِّ الأرض والسماوات، وفرحوا بقربه، وتَنَعَّمُوا بمعرفته واستروا برؤيته، وطربوا لكلامه.

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ فهو أحق ما أنفقت فيه نفائس الأنفاس، وأولى ما شمر إليه العارفون الأكياس، والحسرة كل الحسرة أن يمضي على الحازم وقت من أوقاته وهو غير مشتغل بالعمل الذي يقرب لهذه الدَّار، فكيف إذا كان يسير إلى

دار البوار؟!!» [تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ المَنَّانِ (ص٧٠٤)][1].

[١] قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهم (أي أهل الجنة) في روضات الجنة يتقلَّبون، وعلى أسرَّتها تحت الحجال يجلسون، وعلى الفرش التي بطائنها من إستبرق يتَّكِئون، وبالحور العين يَتَنَعَّمُون، وبأنواع الثمار يَتَفَكَّهُون ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾، ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ تالله لقد نُودي عليها في سوق الكساد فما قلب ولا أسنام ! إلا أفراد من العباد، فوا عجبا لها كيف نام طالبها؟ وكيف لم يسمح بمهرها خاطبها؟ وكيف طاب العيش في هذه الدار بعد سماع أخبارها؟ وكيف قر للمشتاق القرار دون معانقة أبكارها ؟وكيف قرت دونها أعين المشتاقين؟ وكيف صبرت عنها أنفس الموقنين؟ وكيف صدفت عنها قلوب أكثر العالمين؟ وبأي شيء تعوضت عنها نفوس المعرضين؟..»

«حادي الأرواح» (ص ٢٨).

دوام النعيم

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [سُورَةُ صٓ].

قال الإمام السعدي رحمه الله:

«﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا﴾ الذي أوردناه على أهل دار النعيم ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ أي: انقطاع، بل هو دائم مستقر في جميع الأوقات، متزايد في جميع الآنات.

وليس هذا بعظيم على الرب الكريم، الرءوف الرحيم، البر الجواد، الواسع الغني، الحميد اللطيف الرحمن، الملك الديان، الجليل الجميل المنان، ذي الفضل الباهر، والكرم المتواتر، الذي لا تحصى نعمه، ولا يحاط ببعض بره» [تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلاَمِ المَنَّانِ (ص ٧١٤)][١].

---

[١] فائدة:

قال العلامة عبد المحسن بن حمد العباد البدر حفظه الله: «وبقاءُ الجنَّة والنَّار وخلودُ أهلهما فيهما إلى غير نهاية لا يُنافي كون الله ﷻ الآخرَ الذي ليس بعده شيء؛ لأنَّ بقاءَ الله عزَّ وجلَّ لازمٌ لذاته، وبقاءَ الجنَّة والنار وأهلِهما فيهما حصل بإبقاء الله لهما، وليس لهما إلاَّ الفناء لولا إبقاء الله لهما» «قطف الجنى الداني» (ص١٥٦).

كلما كانت المسائل أجل وأكبر، كانت الدلائل عليها أكثر وأيسر

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [غافر].

قال الإمام السعدي رحمه الله:

«يذكر تعالى نعمه العظيمة على عباده، بتبيين الحق من الباطل، بما يري عباده من آياته النفسية والآفاقية والقرآنية، الدَّالة على كل مطلوب مقصود، المُوَضِّحَةُ للهدى من الضَّلال، بحيث لا يبقى عند النَّاظِر فيها والمتأمل لها أدنى شك في معرفة الحقائق، وهذا من أكبر نِعَمِه على عباده، حيث لم يبق الحق مشتبها، ولا الصَّواب ملتبساً، بَلْ نَوَّع الدَّلالات وَوَضَّح الآيات، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة، وكُلَّما كانت المسائل أجلّ وأكبر، كانت الدلائل عليها أكثر وأيسر، فانظر

إلى التوحيد لما كانت مسألته من أكبر المسائل، بل أكبرها، كثرت الأدلة عليها العقلية والنقلية وتنوَّعت، وضرب الله لها الأمثال وأكثر لها من الاستدلال، ولهذا ذكرها في هذا الموضع، ونبَّه على جملة من أدلَّتِها فقال: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾» [تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلاَمِ المَنَّانِ (ص ٧٣٤)][١].

[١] قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «كُلَّما كان النَّاس إلى الشيء أحوج كان الربُّ به أجود» «النبوات» (ص ١٧٦).

أعظم الرجال قدرا، وأعلاهم فخرا

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف].

■ قال الإمام السعدي رحمه الله:

«وقولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ لو عرفوا حقائق الرِّجال والصِّفَات التي يُعْرف بها عُلُوّ قَدْر الرَّجل وعِظَم منزلته عنْد الله وعنْد خَلْقِه لعلموا أنَّ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ هو أعْظم الرجال قَدْرًا، وأعْلَاهم فَخْرًا، وأكْمَلهم عقلًا، وأغْزَرَهم عِلْمًا، وأجلَّهم رأيًا وعزمًا وحزمًا، وأكملهم خُلُقًا وأوسعهم رحمةً وأشدَّهم شفقةً وأهداهم واتْقَاهم.

هو قطب دائرة الكمال، وإليه المنتهى في أَوْصَافِ الرِّجال، ألَا وهو رجل العالم على الإطلاق، يَعْرف ذلك أولياؤه و أعداؤه، فكيف يُفَضِّلُ عليه المشركون من لم يشمّ مثقال ذرّةٍ من كمال؟!ومن جرْمُه ومنتهى حمقه أن يجعل إلهه الذي

يعبده ويدعوه ويتقرب إليه صنماً أو شجراً أو حجرًا لا يَضرّ ولا ينفع، ولا يُعطي ولا يَمنع، وهو كَلٌّ على مولاه يحتاج لمن يقوم بمصالحه، فهل هذا إلا من فعل السفهاء!» [تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلاَمِ المَنَّانِ (ص ٧٦٥)][١].

* * * * *

[١](٤٧) قال الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال بعضُ السَّادة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ]، كأنَّه يقول: من خيركم نفسا، وأطهركم قلبا، وأصدقكم قولا، وأزكاكم فعلا، وأثبتكم أصلا، وأوفاكم عهدا، وأمكنكم مجدا، من أكرمكم طبعا، وأحسنكم صنعا، وأطيبكم فرعا، وأكثركم طاعة وسمعا، من أعلاكم مقاما، وأحلاكم كلاما، وأوفاكم زماما، وأزكاكم سلاما، من أجلكم قدرا، وأعظمكم فخرا، وأكثركم شكرا، وأرفعكم ذكرا، وأعلاكم أمرا، وأجملكم صبرا، وأحسنكم خبرا، وأقربكم بشرا، من أبعدكم مكانا، وأعظمكم شأنا، وأرجحكم ميزانا، وأولكم إيمانا، وأوضحكم بيانا، وأفضلكم لسانا، وأظهركم سلطانا، وأبينكم برهانا، من أرسخكم قدما، وأبينكم علما، وأوصلكم رحما، وأبركم قسما، وأبعدكم كرما، وأرعاكم ذمما، من أسطعكم نورا، وأنوركم سرورا، وأجملكم حبورا، وأفضلكم حيا ومقبورا» «بستان الواعظين» (ص ٢٩٩).

﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [مُحَمَّد].

■ قال الإمام السعدي رحمه الله:

«أي:فهلاَّ يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله، ويتأمَّلونه حقَّ التأمُّل، فإنهم لو تدبَّروه، لَدَلهَّم على كل خير، ولحذَّرهم مِنْ كل شرّ، ولملأ قلوبهم مِنَ الإيمان، وأفئدتهم مِنَ الإيقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية، والمواهب الغالية، وليبين لهم الطريق الموصلة إلى الله، وإلى جَنَّتِه ومكملاتها ومفسداتها، والطرق الموصلة إلى العذاب وبأي شيء تُحْذَر، ولعرَّفهم بربِّهم، وأسمائه وصفاته وإحسانه، ولشوَّقهم إلى الثَّواب الجزيل، ولرهَّبهم من العقاب الوبيل»[تَيْسِيرُ الكَرِيمِ

الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَنَّانِ (ص ٧٨٨)][١].

[١] قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبُّر والتفكُّر، فإنه جامع لجميع منازل السَّائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي يُورِث المحبَّة والشَّوق، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل، والرضا والتفويض، والشُّكر والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة والتي بها فساد القلب وهلاكه..»«مفتاح دار السعادة» (١/ ١٨٧).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ينبغي للقارئ أن يكون شأنه الخشوع، والتدبر والخضوع، فهذا هو المقصود المطلوب، وبه تنشرح الصُّدور وتستنير القلوب، ودلائله أكثر من أن تُحصر، وأشْهَر من أن تُذْكر»«الأذكار» (ص ١٨٩).

﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾

قال الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [قٓ].

قال الإمام السعدي رحمه الله:

«يقول تعالى - مخوِّفًا للمشركين المكذِّبين للرَّسُول ﷺ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: أمما كثيرة هم أشدّ مِنْ هؤلاء بطشًا أي: قُوَّة وآثارًا في الأرض.

ولهذا قال: ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ أي: بَنَوا الحُصُون المنيعة والمنازل الرَّفيعة، وغرسوا الأشجار، وأجروا الأنهار، وزرعوا، وعَمَّروا، ودمَّروا، فلما كَذَّبُوا رسل

الله، وجحدوا آيات الله[1]، أخذهم الله بالعقاب الأليم، والعذاب الشديد، فـ ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾أي: لا مفرَّ لهم من عذاب الله، حين نزل بهم، ولا منقذ، فلم تغن عنهم قوَّتهم، ولا أموالهم، ولا أولادهم» [تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلاَمِ المَنَّانِ (ص ٨٠١)].

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

[١] قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: إنّ «نجاسة الشرك اللاحقة بمن عصاه، وارتكب ما عنه نهاه، واتَّبع هواه، ولم يخش ربه ومولاه، وقَلَّ نصيبه أو عدم في تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله فإنَّ هذا وأمثاله من النبي ﷺ صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه، وتجريد له وغضب لربه أن يعدل به سواه، فأبى المشركون إلا معصية لأمره وارتكابا لنهيه، وغرَّهم الشيطان فقال: بل هذا تعظيم لقبور المشايخ والصَّالحين وكلما كُنتم أشدَّ لها تعظيما وأشدَّ فيهم غلوا كنتم بقربهم أسعد، ومن أعدائهم أبعد» «إغاثة اللهفان» (١/ ١٨٩).

إنه العليم ﷻ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ [سُورَةُ الحُجُرَاتِ].

قال الإمام السعدي رحمه الله:

«﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: الأمور الخفية فيهما، التي تخفى على الخلق، كالذي في لجج البحار، ومهامه القفار، وما جنه الليل أو واراه النهار، يعلم قطرات الأمطار، وحبات الرمال، ومكنونات الصدور، وخبايا الأمور»[تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلاَمِ المَنَّانِ (ص٨٠٢)][١].

---

[١] لطيفة:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالدُّعَاءُ يَجُوزُ بِالْعَرَبِيَّةِ وَبِغَيْرِ الْعَرَبِيَّةِ وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ قَصْدَ الدَّاعِي وَمُرَادَهُ وَإِنْ لَمْ يُقَوِّمْ لِسَانَهُ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ ضَجِيجَ الْأَصْوَاتِ بِاخْتِلَافِ اللُّغَاتِ عَلَى تَنَوُّعِ الْحَاجَاتِ» «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٤٨٩).

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾

قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن].

قال الإمام السعدي رحمه الله:

«هو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، وهو واسع الجود والكرم، فكل الخلق مفتقرون إليه، يسألونه جميع حوائجهم، بحالهم ومقالهم، ولا يَسْتَغْنُون عنه طرفة عين ولا أقلَّ مِنْ ذلك، وهو تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ يُغْنِي فقيرًا، ويجْبُر كسيرًا، ويعطي قوما، ويمنع آخرين، ويميت ويحيي، ويرفع ويخفض، لا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلطه المسائل، ولا يبرمه إلحاح الملحِّين، ولا طول مسألة السَّائلين، فسبحان الكريم الوهاب، الذي عمَّت مواهبه أهل الأرض والسَّماوات، وعَمَّ لطفه جميع الخَلْقِ في كلِّ الآنات واللَّحَظَات، وتعالى الذي لا يمنعه من الإعطاء مَعْصِيَة العاصين، ولا استغناء الفقراء الجاهلين به وبِكَرَمِه، وهذه الشُّئُون التي أخبر أنه تعالى كل يوم هو في شأن، هي تقاديره وتدابيره التي قدَّرَها في الأزل وقَضَاهَا، لا يزال تعالى يُمْضِيها ويُنَفِّذُها في أوقاتها التي اقتضته حكمته، وهي أحكامه الدينية التي هي الأمر والنهي، والقدرية التي يجريها على عباده مدة مقامهم في هذه الدار، حتى إذا تمت هذه الخليقة وأفناهم الله تعالى وأراد تعالى أن ينفذ فيهم أحكام الجزاء، ويريهم من عدله وفضله وكثرة إحسانه، ما به يعرفونه ويوحِّدُونه، نقل

المكلفين من دار الابتلاء والامتحان إلى دار الحيوان» [تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلاَمِ المَنَّانِ (ص ٨٣٠)][١].

[١](١) قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهو (ﷻ) أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، ويعطي عبده قبل أن يسأله فوق ما يؤمله، يشكر على القليل من العمل ويُنَمِّيه، ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه، و﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ لا يُشْغِلُه سمع عن سمع ولا يغلطه كثرة المسائل ولا يتبرم بإلحاح المُلِحِّين بل يحبُّ المُلِحِّين في الدُّعاء، ويحِبُّ أن يسأل ويغضب إذا لم يسأل، فيستحي من عبده حيث لا يستحي العبد منه، ويستره حيث لا يستر نفسه، ويرحمه حيث لا يرحم نفسه، دعاه بنعمته وإحسانه، وناداه إلى كرامته ورضوانه.. وكيف لا تُحِبُّ القلوب من لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو؟! ولا يجيب الدعوات، ويقيل العثرات، ويغفر الخطيئات، ويستر العورات، ويكشف الكربات، ويغيث اللهفات، وينيل الطلبات سواه؟! فهو أحقُّ مَنْ ذُكِر، وأحقُّ مَنْ شُكِر، وأَحَقُّ مَنْ حُمِد، وأَحَقُّ مَنْ عُبِد، وأنصر مَنْ ابتغي، وأرأف مَنْ ملك، وأجود مَنْ سئل، وأوسع مَنْ أعطى، وأرحم مَنْ استرحم، وأكرم مَنْ قصد، وأعز مَنْ التجئ إليه وأكفى مَنْ توكل عليه، أرحم بعبده مَنْ الوالدة بولدها، وأشد فرحا بتوبة عباده التائبين مَنْ الفاقد لراحلته، التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا يأس من الحياة فوجدها، وهو الملك فلا شريك له والفرد فلا ندله، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ لن يطاع إلا بإذنه، ولن يعصى إلا بعلمه، يطاع فيشكر.. ويعصى فيغفر.. فهو أقرب شهيد، وأدنى حفيظ، وأوفى بالعهد، وأعدل قائم بالقسط، حال دون النفوس، وأخذ بالنواصي، وكتب الآثار، ونسخ الآجال، فالقلوب له مفضية، والسر عنده علانية، والعلانية والغيوب لديه مكشوف، وكل أحد إليه ملهوف، وعنت الوجوه لنور وجهه، وعجزت القلوب عن إدراك كنهه، ودلت الفطر والأدلة كلها على امتناع مثله وشبهه، أشرقت لنور وجهه الظلمات، واستنارت له الأرض والسموات، وصلحت عليه جميع المخلوقات، لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يحفظ القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار،وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه..» «الداء والدواء» (ص ١٦٦).

الخاتمة

هذا آخر ما تيسر إيراده، وتقرر إعداده، فما كان فيه من صواب فمن الله، بفضله وتوفيقه، وما فيه من خطإ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريئان، والله المستعان وعليه التكلان، وأسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يجعله لوجهه خاصا، ومن النار منجيا ومخلصا،وأن ينفع به كاتبه وقارئه في الدنيا والآخرة.

وفي الختام أقول:«فيا أيُّها النَّاظر فيه، لك غُنْمُه وعلى (جامعه) غُرْمُه ولك صفوه، وعليه كدره، وهذه بضاعته المزجاة تُعْرَض عليك، وبنات أفكاره تُزَفُّ إليك، فإن صادفت كفؤا كريما لم تعدم منه إمساكا بمعروف أو تسريحا بإحسان، وإن كان غيره، فالله المستعان، فما كان من صواب فمن الواحد المنان، وما كان من خطأ فمني ومن الشيطان، وما وجدت من صواب وحق فاقبله، ولا تلتفت إلى قائله، بل انظر إلى ما قال لا إلى من قال، وقد ذم الله تعالى من يرد الحق إذا جاء به من يغضبه، ويقبله إذا قاله من يحبه»[١].

«إِلهَي: لو أردتَ إهانتنا لم تهدنا، ولو أردتَ فضيحتنا لم تسترنا، فتم اللهم ما به بدأتنا، ولا تسلبنا ما به أكرمتنا.

---

[١] من كلام الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «مدارج السالكين» (٣/ ٣٨٣)، و«حادي الأرواح» (ص٣٤).

إِلَهِي: عرَّفتنا بربوبيتك، وغرَّقتنا في بحار نعمتك، ودعوتنا إلى دار قدسك، ونعمتنا بذكرك وأنسك.

إِلَهِي: إن ظلمة ظلمنا لأنفسنا قد عمَّتْ، وبحار الغفلة على قلوبنا قد طَمَّتْ؛ فالعجز شامل، والحصر حاصل، والتسليم أسلم، وأنت بالحال أعلم

إِلَهِي: ما عصيناك جهلا بعقابك، ولا تعرُّضًا لعذابك، ولا استخفافا بنظرك؛ ولكن سوَّلت لنا أنفسنا، وأعانتنا شقوتنا، وغرَّنا سترك علينا، وأطمعنا في عفوك بِرُّك بنا؛ فالآن من عذابك من يستنقذنا؟! وبحبل من نعتصم إن أنت قطعت حبلك عنا؟!

واخجلتنا من الوقوف بين يديك!

وافضيحتنا إذا عرضت أعمالنا القبيحة عليك!

اللهم اغفر لنا ما علمت، ولا تهتك ما سترت.

إِلَهِي: إن كنا قد عصيناك بجهل؛ فقد دعوناك بعقل، حيث علمنا أن لنا ربا يغفر ولا يبالي.

إِلَهِي: أنت أعلم بالحال والشكوى، وأنت قادر على كشف البلوى.

اللهم يا من سترت الزلات، وغفرت السيئات، أجرنا من مكرك، ووفقنا لشكرك.

إِلَهِي: أتحرق بالنار وجه كان لك مصليا، ولسانا كان لك ذاكرا أو داعيا؟!

فارحم - اللهم - عبادا غرهم طول إمهالك، وأطمعهم كثرة أفضالك، وذلوا لعزك وجلالك، ومدوا أكفهم لطلب نوالك، ولولا هدايتك لم يصلوا إلى ذلك»[١].

ثُمَّ إِلَى هُنَا قَدِ انْتَهَيْتُ ... وَتَمَّ مَا بِجَمْعِهِ عُنِيتُ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى انْتِهَائِي ... كَمَا حَمِدْتُ اللَّهَ فِي ابْتِدَائِي
أَسْأَلُهُ مَغْفِرَةَ الذُّنُوبِ ... جَمِيعِهَا وَالسَّتْرَ لِلْعُيُوبِ
ثُمَّ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَبَدَا ... تَغْشَى الرَّسُولَ الْمُصْطَفَى مُحَمَّدَا
ثُمَّ جَمِيعَ صَحْبِهِ وَالْآلِ ... السَّادَةِ الْأَئِمَّةِ الْأَبْدَالِ
تَدُومُ سَرْمَدًا بِلَا نَفَادِ ... مَا جَرَتِ الْأَقْلَامُ بِالْمِدَادِ
ثُمَّ الدُّعَا وَصِيَّةُ الْقُرَّاءِ ... جَمِيعِهِمْ مِنْ غَيْرِ مَا اسْتِثْنَاءِ

* * * * *

[١] خاتمة «فتح الباري» (١٣/ ٦٦١).

فهرس

المقدمة ٥

مِنْ جَمِيلِ كَلَامِ الإِمَامِ ابْنِ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ ١٢

ترجمة مختصرة للإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ ١٣

الصفا والمروة ٢٢

آياتٌ ومعجزاتٌ ٢٤

تَدَبَّر وَتَفَكَّر ٢٦

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾ ٢٨

مُحَمَّد رَسُولُ اللّٰه ﷺ ٣٠

خير الناس قرني ٣٢

قصة السحرة مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ٣٥

لا تؤثر الأدنى على الأعلى..... ٣٧

إِنَّهَا الجَنَّةُ وَكَفَى ٣٩

آيَات كَونِيَّةٌ ٤١

فَرِيقٌ فِي الجَنَّة وَفَرِيقٌ فِي السَّعِير..... ٤٣

إنَّه اللّٰه ﷻ ٤٥

بلى قد آن ٤٦

﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾..... ٤٨

مِنْ جَمِيلِ كَلَامِ الإِمَامِ ابن سَعْدِي رحمه الله فِي تَفْسِيرِه ٤٩

ترجمة مختصرة للإمام ابن سَعْدِي رحمه الله ٥٠

﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾..... ٥٧

عظمة اللّٰه ﷻ..... ٦٠

وعيد شديد..... ٦٢

الموت..... ٦٤

تَسْلِيةُ أَهْلِ الفَقْرِ..... ٦٦

إنَّه اللّه ﷻ ٧٠

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾..... ٦٨

رحلة إلى الدار الآخرة ٧٢

أعظم صفقة..... ٧٤

الدنيا..... ٧٧

تسلية للنبي ﷺ ٧٩

إدريس عليه السلام..... ٨٠

أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ ٨٢

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ ٨٥

الظَّلَمَةُ ٨٧

اللّٰه ﷻ ٨٨

الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٩٠

دوام النعيم..... ٩٢

كلما كانت المسائل أجل وأكبر، ٩٣

كانت الدلائل عليها أكثر وأيسر..... ٩٣

أعظم الرجال قدرا، وأعلاهم فخرا..... ٩٥

﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ٩٧

﴿هَلۡ مِن مَّحِيصٍ﴾..... ٩٩

إنه العليم ﷻ..... ١٠١

﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٍ﴾ ١٠٢

الخاتمة..... ١٠٤

ISBN 978-9931-616-53-5
9789931616535